يوميات بطل

تأليف

دينا عاصم

دار العلوم
للنشر والتوزيع

يوميات بطل
المؤلف: دينا عاصم
الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٨
التنسيق الداخلي: رفعت حسن سيد
دار العلوم للنشر والتوزيع
ص. ب: ٢٠٢ محمد فريد ١١٥١٨
هاتف: ٠١١٤٤٧٦٤٠٠٠ ـ ٠١٠٦١١٦٠٩٨٨
الموقع الإلكتروني: www.dareloloom.com
البريد الإلكتروني: daralaloom@hotmail.com
Facebook.com/dareloloom
Twiter: @dareloloom
جميع الحقوق محفوظة. . .

دار العلوم للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار العلوم للنشر والتوزيع

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

شرف/ لمياء شرف
يوميات بطل/ تأليف: دينا عاصم – القاهرة: دار العلوم للنشر، ٢٠١٨
٢٣٢ص، ١سم
تدمك: ٣ ٥٦٢ ٣٨٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١. يوميات. أ) العنوان ١٣٧. ٣٣١
رقم الإيداع: ٢٩٤٩ التاريخ: ١٤/ ١/ ٢٠١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تنبيه

صدرهذا الكتاب فى عام ٢٠١٤ باسم : طارق على باب أفريفيا وهذة هى طبعة جديدة لعام ٢٠١٨ باسم جديد وغلاف جديد واخراج داخلى جديد وبرقم ايداع جديد وترقيم دولي جديد

سيـــزر

أشــرقت الشــمس ومــدت يــدها الذهبيــة تخــرج النــائمين مــن أحلامهم، وداعبت أشعتها عينيْ تونجا التي تمطَّتْ وفتحـت عينيهـا في بطء وكسل تراقب عائلتها التي كانت ما بين نائم ومسـتيقظ ومـا بـين الاثنين. تونجا شبلة جميلة تحيا في جنوب إفريقيا، حيث جمـال الطبيعـة الآسر، مع أمها وأبيها وعائلتها الكبيرة المكونة من عدة إنـاث وبضـع إخوة وأخوات، كانت هي الابنة الكبرى للأنثـى المسـيطرة[1] وأحـب أخواتها لأمها. وكانت حياتها مليئة باللعـب واللـهو وتعلُّـم الصـيد الذي كانت توليه اهتمامًا كبيرًا وتحبه بالفطرة.

---

(١) الأنثى المسيطرة أو الألفا هي قائدة جماعة اللبؤات والمتحكمة فـيهن في الأسـرة الواحدة

في ذلك اليوم كانت قد بلغت عامها الثاني . لمَّا تذكرت هذا قامت بنشاط وسعادة تشاكس أختها التي استلقت بكسل في ظل الشجرة، ثم قامت تطارد تونجا بعد أن استفزتها بمضايقاتها، وبعد فترة كان قد أنهكهما اللعب . . نادت والدتهما عليهما، كان ذلك ايذانًا بالخروج في مهمة صيد .

خرجت تونجا مع أمها وأخواتها وزوجات أبيها، وبعد مسير طويل تراءَى لهن قطيع من الحُمُر الوحشية، وبإشارة من والدة تونجا وبهدوء شديد بدأت اللبؤات تتفرقن وتُحطْن بالقطيع غير المنتبه مستترة بالسافانا، ووقفت تونجا في موقعهَا متأهبة تنتظر الإشارة الكبيرة لبدء الهجوم، لكنها فجأة شعرت أن شيئًا ما يحدث على الجانب المقابل لها ـ حيث كانت بقية أخواتها ـ ثم سمعت طلقات نارية وأصوات صراخ بشر وزئير أمها وأخواتها، ورأت أخواتها يركضن في كل مكان، ورجالاً ببنادق يصوبونها نحوهن ويطلقونها . كانوا صيادِي أُسود يقتلون ويأسرون أخواتها وأمها وزوجات أبيها، وساد الهرجَ والمرج والأسود تحاول الفرار .

جرت تونجا تجاه صوت زئير والدتها، لكنها فوجئت بفوهة بندقية في وجهها، وراءَها رجل يتأهب لضغط الزناد، ورأت تونجا والدتها وهي تهاجمه من خلفه فأخطأ هدفه وأوقعته الأم أرضًا وهي تصرخ فيها : "اهربي بسرعة!" ، فما كان منها إلا أن جرت إلى

الناحية الأخرى، وحين حانت منها التفاتة وراءها وجدت أمها محاصرة من كل صوب، أرادت العودة لنجدتها، لكنْ صدَّها أحد الرجال وهو يصرخ في وجهها ويجري وراءها بسيف وسوط، فجرتْ ووقع هو أرضًا لمَّا تعثر في أحد أغصان الشجر.

أخذت تونجا تجري وتجري مبتعدة عن المكان. ولما توقفت لتلتقط أنفاسها كانت قد ركضت مسافة طويلة وابتعدت كثيرًا، لكن أين هي؟ لقد ابتعدت كثيرًا عن أهلها؛ فهذه الأرض لم تطئْها قدمها من قبل، ترى كيف هي عائلتها؟ هل نجوا؟ هل نجت أخواتها؟ هل نجت أمها؟ حين تذكرت أمها أحست بحزن عميق واحتقار لنفسها؛ لقد تركتها وهربت! وبكت تونجا لمَّا تذكرتْ أمها، أمها الحبيبة، تُرى هل هي بخير؟ أم...؟ لم تستطع إكمال العبارة أو تتصور أن والدتها ربما تكون قد ماتت دفاعًا عن حياتها. اعتصر الحزن قلبها على ما حلَّ بأهلها، إنها مصيبة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فقد تركت اللبؤات صغارهن تحت رعاية لبؤة واحدة ووالدهم، ولو لم تعد اللبؤات لإرضاع صغارهن فلسوف تموت الصغار، فلن يستطيع الوالد الصيد وحده أبدًا، ولن يتمكن من تأمين الغذاء أو الحماية وحده للصغار أبدًا، لقد انتهت عائلتها، طُعنت في مقتل!

حاولت أن تتشمم طريقها للعودة لأبيها وأخواتها الصغار لعلها تتمكن من مساعدته مع من نجا من اللبؤات من الهجوم. هناك دائمًا

أمل، فلتكمل سيرها بحثًا عن أهلها، ولسوف تساعد والدها على إعادة كل شيء كما كان، وستساعده على الصيد وحماية الصغار من شر الضباع والفهود والجوارح. وبالفعل دبَّت في عروقها القوة من جديد وبدأت تركض وتركض وتبحث عن أي أثر يقودها لعائلتها.

أمضت تونجا أيامًا سائرة بغير هدى، لا تدري ما ألمَّ بعائلتها ولا ما سيكون مصيرها، كانت تقضي ساعات النهار باحثة عن طعام يسُدُّ جوعها، وحاولت أكثر من مرة أن تصطاد، غير أن سنها الصغيرة وقلة خبرتها بالصيد، وهجومها وحدها بلا مجموعة، أدى إلى فشل محاولاتها في الصيد تمامًا. ولهذا كانت تأكل الجيَف، وما تتركه حيوانات الغابة من بقايا لم يكن يكفي، ولم يكن شَهيًّا، لكن جوعها كان غالبًا على كل هذا، وهو ما قوَّاها لتكمل سيرها بالغابة بحثًا عن عائلتها أو أي دليل على مكانهم.

وبعد أيام من السير بغير هدى وكانت قد بلغت من التعب واليأس أقصاه، اشتمَّتْ تونجا رائحة أسود، وعاد الأمل يسري في عروقها فتبعت الرائحة لتجد مجموعة من الأسود في رحلة صيد، كانت الجماعة تتربص بقافلة من الجاموس الوحشي، ثم بدأ الهجوم. راقبت تونجا الصيد وهي مختفية وراء إحدى الأشجار، كان من بين الأسود أسد يقاربها في العمر غير أنه أكبر منها قليلاً، وكان قويًّا وجامحًا. هجم الأسد على أحد ذكور الجاموس الوحشي وحده

بشجاعة كبيرة، لكن الثور حمله فوق قرنيه وألقَى بـه في الـبحيرة ولاذ بالفرار. ضحكت تونجا بشدة من مشهد الأسد وهـو يحـاول الخـروج وقد ابْتلَّ تمامًا، غير أنها ارتعبت لما رأت خلفه تمساحًا كبيرًا وقد سارع بالسباحة نحوه، ولما أحس الأسد به التفتَ بسـرعة ليجـد فكَّـه الهائـل أمامه، فما كان منه إلاَّ أن قفز بعيدًا، لكن التمساح كان مصممًا علـى الفتك به!

أخذ الأسد يقفز يمينًا ويسارًا متفاديًا إطباق فكِّ التمساح الرهيـب عليه، وراح يضربه بمخالبه على وجهه، ولأن حركتـه في المـاء كانـت أثقل من التمساح؛ أطبق التمساح على إحدى قدميه وبـدأ يسـحبه إلى داخل البحيرة. هنا ألقـتْ تونجـا بنفسـها في الميـاه واقتربـت مـن ذيـل التمساح وعضته بكل قوة، فترك قدم الأسد ليلتفت إليهـا فاتحًـا فكَّيْـه بوحشية مُصرًّا على الانتقام، فكشرت عن أنيابها مهددة إياه مع الأسد الذي زأر زئيرًا ارتعش منه التمساح واجتمع لـه أفـراد الأسـرة الـذين بدأوا الهجوم على التمساح في الوقت الذي أخذ الأسد وتونجا يعودان للخلف ببطء خارجين من البركة.

كان الأسد يدعى سايري، ولما خرجـوا جميعًـا إلى اليابسـة سـألته تونجا بقلق:

"هل أنت بخير؟"

وقبل أن يستطيع النطق اندفعت عائلته نحوه والتفُّوا حوله يطمئنون عليه . لم يلتفت أحد إلى تونجا التي وقفت لحظات تنظر إليهم بمزيج من الفرح والأسى على عائلتها التي تذكرتها لما رأت عائلة سايري وحبهم له، واستدارت لتغادر بخطًى ثابتة تاركة العائلة مجتمعة وسعيدة بنجاة أحد أفرادها حين سمعت صوتًا يقول : "انتظري!" التفتت إلى الصوت فوجدت الأسد الذي أنقذته يترك العائلة ويجري نحوها وهو يستند على قدمه المصابة بصعوبة، فبادرها بسؤاله :

"إلى أين أنت ذاهبة؟"

لم تَدْرِ ما تقول؛ فلاذت بالصمت وهي تهز رأسها . ساعتها تقدمت إحدى اللبؤات ـ والتي يدل مظهرها على أنها الأنثى المسيطرة ـ فقالت :

"من أين أتيت؟"

قالت تونجا :

"لا أدري" .

وأطرقت برأسها في صمت حزين فسأل سايري :

"كيف هذا؟ ألا تعلمين من أين أتيت؟ أين عائلتك؟!"

نظرت له في حزن وقالت :

" لا أدري ! "

وبدأت تحكي لهم قصتها .

من بعيد وقفت إحدى اللبؤات القريبة من سايري في السن وهي تنظر بحقد إلى تونجا . كانت تُدعَى زونا ، لم تحب تونجا ، ولم يعجبها انتباه سايري لها . قالت زونا باستهزاء :

" فعلاً ، تتمسكن حتى تتمكن ! "

أما والدة سايري فقالت لتونجا لما فرغت من قصتها :

" يا ابنتي ، أنا آسفة لسماع قصتك ! وأنا أعرض عليك إن أحببت أن تعيشي معنا هنا ، ما رأيك يا سايري ؟ " اندفع زانجا الأسد الأبيض قريب سايري بفضول وقال :

" أكيد سايري موافق يا خالتي ؟ "

فدفعه سايري جانبًا وقال وهو ينظر في عيني تونجا ، " طبعًا ! طبعًا ! " لم يكن سايري ليحلم بأكثر من هذا ، ثم استدرك بعدما شعر بالحرج قائلاً :

" أقصد ، إذا أحبت تونجا أن تعيش معنا سيكون هذا شيئًا جميلاً ! "

من بعيد كانت زونا تسمع ما يدور وهي تنظر لهم وقلبها يخفق وتقول في سرها : " لا ! لا توافقي ، لا توافقي " . . .

هنا ابتسمت تونجا وقالت بلطف :

" أكيد ، أحب أن أعيش معكم " .

ونظرت إلى والدة سايري فوجدتها تبتسم ، وصرخ سايري :

" مرْحَى ! "

واحتضن زانجا بفرح ثم توقف في إحراج لما شعر أن الكل ينظر إليه وأطرقت تونجا رأسها خجلاً .

ومن هنا بدأت قصة حب سايري وتونجا ، كان سايري يلقب تونجا بـ" ملاكي الحارس " ، فمنذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناه عليها وسمع فيه صوتها وهي تسأله : " هل أنت بخير؟ " وهو متيَّم بحبها .

عاشت تونجا معهم ، ولما توفي والد سايري ووالدته أصبح هو قائد المجموعة وزوجًا لكلٍّ من تونجا وريتا وكينا وزونا ، وكانت تونجا بالطبع هي الأنثى الأحب إلى قلبه .

عاش سايري وعائلته المكونة من أربع لبؤات وصغارهن في جنوب إفريقيا . وكان يوم حمل تونجا فرحًا غير عادي لسايري ، ويوم وضعت مولودها وقفت العائلة جميعًا خارج العرين ، بينما كان هو متوترًا .

قالت ريتا لزونا بغيرة وصغيرها الذي ولد منذ عدة أسابيع يلهو حولها وهي توبخه :

" لم يكن قلقًا هكذا وأنا أضع مولودي ! "

خرجت كينا من العرين بابتسامة لتُطمئن سايري الذي دخل بسرعة ليرى صغيره الجديد .

كانت تونجا تحتضن الشبل مغمض العينين أبيض اللون الذي ما إن رآه سايري حتى شهق من فرط المفاجأة ؛ لم يكن الصغير أصفر اللون كبقية الأسود ، بل كان أبيضَ ناصعًا كالثلج . اقترب من الأم التي كانت تلعقه وتنظفه وقال :

" حمدًا لله على سلامتك " .

ابتسمت وقالت :

" انظر . . كم هو جميل ! ! "

قال بلهجة متسائلة :

" إنه يشبهني جدًّا ، لكنه أبيض ؟ "

قالت :

" نعم ، أليس رائع الجمال ؟ ! "

اقترب سايري من عائلته الصغيرة ومسح وجهه في أنف الشبل بحنان، فعطس الأخير، فضحكا.

"كم هو جميل!"

قال الأب مفتونًا بجمال الصغير: "ماذا سنسميه؟"

قالت تونجا:

"ما رأيك في اسم سيزر؟"

نظر لها نظرة ذات مغزى وقال:

"على اسم أبيك؟"

نظرت له نظرة تجمع بين الرجاء والحزن فقال:

"لم أكن لأفكر في اسم أفضل من هذا!"

وابتسمت بسعادة كبيرة لما أضاف:

"اسم يليق بملك قوي عظيم".

طـــارق

القاهرة

في إحدى ضواحي القاهرة الجديدة توقفت سيارة حمراء نزل منها فتى في الثانية عشرة من عمره وفتاة تصغره بعام يلبسان ملابس المدرسة . . سلَّما على أصدقائهما وأسرعا يدخلان المنزل . الفتى اسمه طارق دخل من باب الحديقة ، بينما دخلت شمس من الباب الرئيسي للمنزل المكون من طابقين . كان من المفترض أن تمُرَّ والدة طارق وشمس لتصحبهما من المدرسة غير أنها في ذلك اليوم كانت مشغولة ؛ فطلبت من والدة أصدقائهما أن توصلهما في طريقها .

طارق فتى متوسط الطول بالنسبة لمن هم في سنِّه ، ذو جسد رياضي بفضل ممارسته لرياضة الجمباز وكرة الماء ، وهو فتى عادي كأي فتى في سنه ، غير أنه مختلف في اهتماماته عمَّن هم في سنه ،

فطارق مولع بالحياة البرية، يحب كل ما له علاقة بالطبيعة والكائنات، وخاصة النادر منها، على جدران حجرته مئات من الصور الفوتوغرافية التي التقطها في سفرياته مع والديه وأخته لحيوانات وكائنات في منتهى الجمال والندرة، كان قد ورث حبه للطبيعة والكائنات واهتمامه بحمايتها والدفاع عنها عن والديه؛ فوالدته الدكتورة راجية جراحة بيطرية، ووالده الدكتور نادر عالم متخصص في الحياة البرية، وكانا دائمي السفر لدراسة الكائنات البرية والمشاركة في مؤتمرات وحملات للتوعية بأهمية حمايتها والحفاظ عليها، وكان طارق يرافقهما أينما ذهبا يصور ويدون ملاحظاته وهو بَعْدُ صغير.

على عكسه تمامًا كانت أخته شمس التي كان الكل يتصور للوهلة الأولى أنها مثل والديها وأخيها من محبي الطبيعة والمدافعين عنها، غير أنها كانت تصدم كل من يتعرف عليها بعدم اهتمامها بكل ذلك. كانت فتاة جميلة ورياضية تهتم بالموضة والفرق الموسيقية كأي فتاة في سنها، لا يشغلها عمل والديها أو تعرض الكائنات للخطر عن الاهتمام بشكلها ومظهرها، بالنسبة لها كان الاهتمام بأي شيء سوى نفسها ضربًا من التفاهة.

على باب الحديقة استقبلته في شوق كلبته من نوع الجيرمان شيبرد، تريسي، وهي تنبح وتقفز في سعادة، فقال وهو يربت على رأسها بمرح:

" أنت أيضًا أوحشتني يا تريسي " .

ثم نظر إلى قفص بداخله شمبانزي صغير أخذ يقفز ويصرخ بسعادة وقال وهو يفتح له الباب ليقفز على كتفيه وبين يديه كالأطفال :

" عطوة! كيف حالك؟ "

سار طارق حاملاً عطوة حتى وصلا إلى حجرة صغيرة وقال :

" عطوة انتظر في الخارج، سأطمئن على عباس " .

وعباس ثعبان من نوع المامبا السوداء[٢]، وقفز عطوة برعب لما اقترب طارق من باب حجرة عباس، وانطلق في الحديقة يصرخ، وضحك طارق لأنه كان يعلم كم يرتعب عطوة من الأفاعي وخاصة عباس بعدما كاد يفتك به يومًا ما عندما فتح عطوة بشقاوته الغطاء الزجاجي الذي يغطي الحوض الزجاجي الذي ينام فيه عباس، وخرج عباس من القفص وكاد أن يلدغ عطوة لولا وصول والد طارق في الوقت المناسب .

---

(٢) Black Mamba : نوع من الأفاعي شديدة السمية تحيا في إفريقيا، وهي ثاني أطول أفعى سامة في العالم بعد الكوبرا الملك، (king kobra) وأطول أفعى سامة في إفريقيا .

دخل طارق ونظر إلى عباس واطمأن عليه، ثم خرج واتجه إلى معمل أبيه فلم يجده هناك، وفي طريقه مر على أقفاص العصافير والببغاوات التي أخذت تزقزق وتلقي عليه التحية وخاصة سوكا الببغاء من نوع المكاو الأزرق العنق[٣] المهدد بالانقراض، والتي كانت تحب طارق جداً وتستمتع باللعب معه حين لا يكون مشغولاً.

بعد أن تمم على أصدقائه في الحديقة دخل المنزل وبدأ صعود الدرج إلى حجرته، لكنه شعر بحركة غريبة في البيت. كان هناك صناديق من الورق المقوَّى موضوعة في الطرقة أعلى السلّم بها أشياء وحاجيات تخص والدته التي كانت مشغولة بوضع حاجياتها في أحد الصناديق وتدندن بأغنية ما وقد وضعت سماعات الآي بود في أذنيها فلم تنتبه لقدوم طارق، ثم وجد أن والده أيضًا يلملم أغراضه في إحدى الحقائب الكبيرة التي لم تستخدم منذ زمن.

رجح طارق أن أباه سيسافر، وكان هذا يحدث كثيراً لكن في المرات السابقة كان يحزم حقيبة صغيرة، فدخل حجرة أبيه وقبل أن يتكلم رن جرس الهاتف فرفع الأب السماعة وأخذ يتحدث مع

---

(٣) Blue-throated Macaw ببغاء المكاو أزرق العنق موطنه الأصلي بوليفيا، وهو مهدد بالانقراض بسبب تدمير موطنه وكثرة اصطياده لأغراض تجارية، وتبقى منه حوالي ٣٥٠ـ٤٠٠ في البرية فقط.

الشخص على الطرف الآخر، فغادر طارق الحجرة ودخل حجرته ليغير ملابسه وينزل إلى حجرة الطعام ليتناول غداءه.

جاءت شمس وتريسي وانضمتا إليه، ثم حضرت الأم ثم الأب. كانا سعيدين بشدة ويبتسمان طوال الغداء ابتسامة واسعة وهما ينظران إلى طارق وشمس وهما يأكلان، فكان شمس وطارق ينظران بعضهما لبعض باستغراب كلما حوَّل الأبوان أعينهما عنهما. كان هناك شيء غريب، خاصة حين قالت الدكتورة راجية بابتسامة عريضة:

"من يأكل كريم كراميل؟"

صعق طارق وشمس وشعرا بالقلق، فلم يحدث أن صنعت الأم كريم كراميل من قبل، بل لم يكن لديها الوقت لصنع أي حلوى في المنزل من قبل قط؟!

وضعت والدتهما طبقين بهما شيء لزج لونه بني لم يكن يمت بأي صلة للكريم كراميل، لكن كان لا بد أن يتذوقه طارق وشمس حتى لا يحرجا أمهما. أكلاه بصعوبة، وتوقف طارق بعد ثاني ملعقة وقال: "لا أقدر"، وأكمل موضحًا:

"تعلمين يا أمي أني لا أحب الكريم كراميل، ولكنه جميل، سلمت يداك!"

ثم نظر لهما وقال: "هل هناك خطب ما؟"

توقفت الأم مكانها ونظرت للأب الذي قال :

" نعم يا أولاد، هناك خبر نود أن نقوله لكما " .

جلست الأم على الكرسي بجانب الأب وأمسكت يده ونظرت إليه نظرة مشجعة، فالتفت إليهما وبدأ حديثه :

" طبعًا أنتم تعلمون كيف كنت أنا وأمكما نعيش قبل ولادتكما وكيف تقابلنا؟! "

صاح طارق في سره :

" لا يا أبي، ليس هذه القصة ثانية، لقد قصصتها علينا حوالي مائة وخمسين مرة! "

قال الأب والابتسامة لا تفارق شفتيه :

" أنا ووالدتكما تزوجنا عن حب " .

صاح طارق في سره : " مائة وواحد وخمسون مرة! "

أكمل الأب :

" ما جمعنا كان حبنا للحيوانات، أنا كنت أراقب قرد

البروبوسكيس[٤] ذا الأنف الكبير الذي يعيش في غابات المنجروف في إندونسيا، وفجأة رأيت قردًا صغيرًا يحاول الخلاص من فخ منصوب في الأرض وقع فيه خلسة، فما كان مني إلا أن ساعدت القرد، لكنه كان مجروحًا جرحًا عميقًا وينزف، ولو كنت تركته كان سيموت، فجريت به إلى المستشفى البيطري، وهناك قابلت والدتكما. أحببت فيها حرصها على القرد واهتمامها به، وهي أيضًا أحبت فيَّ التزامي ومتابعتي لصحة القرد وأني كنت أزوره دائمًا حتى شفي. . وذهبنا معًا وأطلقناه في الغابة معًا وعاد لأمه، ومنذ تلك اللحظة لم نفترق أنا وأمكما أبدًا، سافرنا حول العالم وشاهدنا ودرسنا الكائنات الكثيرة والعجيبة معًا، كانت حياتنا شهر عسل جميل، حتى قررنا أن نستقر لما حملت أمك فيك يا طارق، وبعده فيك يا شمس، وعشنا في القاهرة وربيناكما حتى كبرتما، والآن بما أنكما كبرتما كفاية ويمكنكما السفر حول العالم معنا، فقد قررنا أننا سنعود ثانية لحياتنا القديمة، وأننا بعد أسبوع كلنا سنسافر إلى جنوب إفريقيا ونعيش هناك ونبدأ منها جولتنا حول العالم" .

---

(٤) Proboscis Monkey القرد ذو الأنف الطويل موطنه في جنوب شرق آسيا وبورنيو، يعيش في مجموعات تتراوح أعدادها بين ١٠ – ٣٢ فردًا، وهو سباح ماهر ويتغذى على أوراق أشجار المانغروف.

كان طارق قد وضع رأسه على المنضدة وبدا أنه قد نام، بينما أسندت شمس رأسها على يدها بملل وأخذت تلعب بشوكتها في طبقها وهي تنظر لطبق الكريم كراميل الذي أصبح، بعد لعبها فيه، يشبه البيض المقلي.

بعد أن نطق الأب الكلمات الأخيرة لم يتغير شيء، لكن فجأة بعد سكون دام ثانيتين انتفض طارق من نومه وجحظت عينَا شمس ونظرا غير مصدقين إلى الأب والأم وهما يهتفان بصوت واحد: جنوب إفريقيا؟!

شمس: "جنوب ماذا؟ أين تقع على الخريطة؟"

طارق: "والمدرسة؟ والحيوانات؟ وأصحابي؟ وفريق كرة الماء والجمباز؟ ومذاكرتي ومستقبلي؟!"

الأب: "لقد عملنا حساب كل شيء، لا تخافا".

طارق: "ومن سيأخذ باله من الحيوانات؟ لولا وصاروخ وعباس وسحس وعطوة والباقي؟"

الأب: "طارق، كل هذه الحيوانات هنا بشكل مؤقت، وأنت تعرف هذا، ونحن نأخذ بالنا منها لأنها محتاجة للرعاية حتى تتعافى ثم نرجعها إلى مكانها الأصلي، وأنا اتفقت مع أصحابي الأطباء أنهم سيأخذونها ويعالجونها مثلما كنا نفعل بالضبط".

قاطعته شمس بحدة: "حيوانات؟ أهذا كل ما يشغل بالك؟ وماذا عني أنا؟ وأصحابي؟ والنادي والجمباز؟ والمولات والحفلات؟ إنكما تفاجئوننا أن كل ما عندنا سينتهي بعد أسبوع وأن حياتنا ستتغير تمامًا! أنتما حتى لم تأخذا رأينا؟!"

قال الأب: "أنا آسف يا أولاد، أعرف أنكما متضايقان، لكن كان العرض فرصة جاءت لي ولوالدتكما، ولو ضيعناها سيفوتنا الكثير، وبصراحة لقد ألغينا حياتنا لمدة ثلاث عشرة سنة من أجلكما، أظن آن الأوان أن تعطونا فرصة لنعيشها مرة أخرى، أظن أن هذا من حقنا!"

أضافت الدكتورة راجية: "ثم إننا متأكدان أنكما ستحبان جنوب إفريقيا جدًّا".

بدا واضحًا أن الوالدين قد أخذا القرار ولن يرجعا فيه، ونظر طارق وشمس بذهول لهما غير مصدقين أن حياتهما قد انقلبت في ثانية رأسًا على عقب، وأن كل ما يعرفانه وكل ما يحبانه سوف يفترقان عنه إلى ما شاء الله. كانا يشعران باليأس والحزن، وأخذت شمس تبكي، وجلس طارق بضيق على كرسيه، فأضاف الأب: "يا أولاد، صدقوني.. ستسعدان كثيرًا هناك وتعيشان حياة جديدة وتقابلان أناسًا وحيوانات جميلة".

قامت شمس بعنف وجرت إلى حجرتها وهي تصرخ : "حيوانات؟! حيوانات؟! كل ما يهم هو الحيوانات؟! أنا أكره الحيوانات! "

وقام طارق في صمت وبدأت الدموع تتساقط من عينيه، فمضى إلى حجرته، ولما دخلها جلس على سريره يبكي في صمت ثم حانت منه التفاتة إلى الصور على الحائط، كان يحب السفر ورؤية الكائنات وخاصة الإفريقية، لكنه أبدًا لم يتخيل أن يترك مصر ويعيش في بلد آخر بعيدًا عن أصدقائه وحياته وكل ما يعرف. كانت الصدمة قوية.. لم يكن يعلم هل يفرح بأنه سيكون أقرب من أي وقت آخر للحياة والكائنات التي طالما أحبها واهتم بها، أمْ يحزن لفراق أصدقاء عمره وحياته في القاهرة؟ ترى هل سيحب جنوب إفريقيا؟ ولو لم يحبها، ماذا عساه أن يفعل؟

في داخله ثار ألف سؤال وسؤال، ولم يَدْرِ أين هي الإجابة، لكن شيئًا ما في داخله كان يهمس له أن الإجابة هناكَ.. في جنوب إفريقيا.

قرد البروبوسكيس

رامي

حلقت الطائرة الصغيرة فوق سماء جنوب إفريقيا الزرقاء الصافية . . كانت شمس تنظر من النافذة وهي تضع سماعات الآي بود في أذنيها رافعة صوته بشدة حتى إن طارق كان يسمعه من المقعد المجاور لها . بدا واضحًا بشدة أنها لا تريد التحدث مع أحد وأنها لم تتقبل بعد فكرة ترك مصر والذهاب إلى جنوب إفريقيا .

سأل طارق أباه :

" هذه إذن جنوب إفريقيا؟ وما هو شكلها على الخريطة؟ "

ردَّ د . نادر وهو يخرج خريطة من حقيبة يده توضح مكان جنوب إفريقيا :

" جنوب إفريقيا تقع ـ كما يدل اسمها ـ جنوب القارة الإفريقية، هنا مصر، وهنا جنوب إفريقيا. . انظري يا شمس " .

لكن شمس نظرت لهم ثم حولت وجهها بعيداً .

قالت د. راجية :

" ما زالت غير متقبلة لفكرة ترك مصر والعيش في جنوب إفريقيا " .

قال طارق :

" عندها حق. لقد أوحشتني مصر وقد غادرتها منذ عدة ساعات فقط ! "

قالت د. راجية :

" كلنا أوحشتنا مصر، لكننا هنا من أجلها، يا حبيبي طالما أن الفرد يستطيع أن يعمل شيئًا يفيد أي أحد فإنه يجب أن يعمله، ونحن يمكننا أن نجوب العالم، وبدراستنا لعالم الحيوان بالتأكيد سنفيد مصر وغير مصر. ليس معنى أننا نحب مصر ألَّا نتركها أبدًا، على العكس؛ لأننا نحبها سنلف من أجلها العالم " .

تدخلت شمس وهي تزيل السماعات من أذنها بحدَّة :

" لا أفهم لماذا تدرسون الحيوانات أصلاً؟ ادرسوا التكنولوجيا أو أي شيء آخر مفيداً، أما الحيوانات هذه فلا أهمية لها على الإطلاق ! "

قال د. نادر:

"أتعلمين؟! تقريبًا أغلب اختراعات الإنسان مأخوذة أساسًا من عالم الحيوان، وأن هناك حيوانات يتعلم منها العلم الحديث!"

قال طارق:

"مثل السونار، أليس كذلك؟"

"السونار عند الدلافين والوطاويط وأسماك القرش وغيرها، والمسح السيزمي عند الأفيال، ونظام التكييف عند النمل الأبيض، وأساليب البناء عند الطيور.. بل إن بعض الكائنات تولِّد الكهرباء بخلايا جسمها لتصعق الأعداء، تخيلي لو استطاع الإنسان توليد الكهرباء بجسمه أو عن طريق خلايا حيوانية؟! ولهذا أمرنا الله أن ﴿... سيرُوا في الأَرْضِ فَانظُرُ... (٢٠)﴾ (سورة العنكبوت) وأمرنا بالتفكُّر في الخَلق؛ لأنَ هذا أساس كل شيء في الحياة".

قالت شمس:

"كان من الممكن أن تدرسوا كل هذه الحيوانات في مصر، الحيوانات الموجودة هنا موجودة في مصر. ما زلت لا أرى أي أهمية في وجودنا هنا".

قال د. نادر:

" هكذا؟ حسنًا، ألقي نظرة من النافذة وستعرفين " .

نظر طارق وشمس من النافذة واتسعت عيناهما انبهارًا، فأسفل الطائرة كانت الغابات ومراعي السافانا تمتد بلا انقطاع على مرمى البصر، وقد أخذت قطعان الحيوانات البرية تجري خوفًا حين تمر فوقها الطائرة: قطعان الغزلان والأفيال والزرافات بأعناقها الطويلة.. الأُسود الراقدة في كسل أسفل ظل إحدى الأشجار العملاقة التي تمتلىء بها إفريقيا تنظر في تحفز للطائرة.. والجاموس الوحشي وجاموس النو والحُمر الوحشية ترعَى في سلام ثم تنطلق في سرعة مبتعدة عن صوت الطائرة التي أزعجت أفراس النهر فغطست داخل النهر الممتلئ بالتماسيح. كان المكان تحفة تعجز أجمل الكلمات عن وصفها، كان المكان تجسيدًا للحياة البرية بأجمل معانيها.

هنا أعلن قائد الطائرة أن المنزل الذي سيقطنون به يقع أسفلهم، فنظروا من النافذة فإذا بمنزل يشبه الكوخ وله حديقة ويطل على منظر طبيعي رائع لغابات السافانا وخلفها سلاسل الجبال تسبح بقممها البيضاء المتجمدة وسط السحاب.

هبطت الطائرة ونزل الجميع منها. كان الجو ساكنًا وهادئًا.. هدوء لم يتعودوا عليه في القاهرة الصاخبة. مشوا جميعًا نحو المنزل وقالت شمس: " جميل " وأشارت بيدها نحو شجرة في الحديقة يتدلى منها حبل مربوط فيه إطار سيارة كبير: " طارق، إنها أرجوحة! "، وجرَيا نحو الأرجوحة.

أمام المنزل وقفت مديرة المنزل ميلا وهي سيدة إفريقية في الأربعين من عمرها، رحبت بهم وساعدت الأب على إدخال الحقائب إلى المنزل. أسرع طارق وشمس نحو الأرجوحة وأخذا يتبادلان اللعب عليها ويضحكان، وبينما هما يلعبان على الأرجوحة فجأة قفز قرد لونه أسود وأبيض على الأرجوحة من فوق الشجرة وأخذ يصرخ في وجوههم.

صرخت شمس وجرت مبتعدة، ونادى صوت ما على القرد في حزم: " كولوباس! انزل يا ولد.. تعال هنا! "

كان هذا رامي لحام ابن الدكتور يوسف لحام عالم الحيوانات اللبناني الجنسية، والذي يعيش متنقلا في إفريقيا منذ سنوات مع أسرته المكونة من زوجته المصرية منى وابنه وابنته. رامي فتى في نفس سن طارق أبيض البشرة وأشقر ذو عيون عسلية، وهو نحيف لدرجة لافتة للنظر، لكنه كان أطول قليلاً من طارق. نظر طارق وشمس نحو رامي الذي جرى القرد وصعد فوق إحدى كتفيه ولف ذيله حول عنقه.

قال رامي:

" أنا آسف.. لم يكن في ودي أن يكون هذا هو الانطباع الأول من لقائنا. أعرِّفكم بنفسي.. أنا رامي لحام ابن الدكتور لحام، وهذا كولوباس، ليس سوى قرد صغير لطيف جدًّا وصاخب بعض الشيء ".

قال د. لحام وهو يمد يده يصافح الأب والأم:

"حمدًا لله على السلامة يا د. نادر ود. راجية.. أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بسفركم إلى هنا".

قال د. نادر:

"شكرًا د. لحام، الرحلة كانت مرهقة لكن جميلة".

"أنا أصْرَرْتُ أن أحضُر لأستقبلكم بنفسي وأطمئن عليكم. هل تحتاجون لأي شي؟"

"شكرًا جدًّا، هذا كرم كبير منك".

أما طارق وشمس فكانا مع رامي يتحدثون عن كولوباس.

سأل طارق:

"ما نوع هذا القرد؟"

قال رامي:

"كولوباس٥".

---

(٥) Colobus Monkey قرد الكولوباس موطنه إفريقيا، وهو يحيا في الغابات الكثيفة في مجموعات تتراوح أعدادها بين ٥ـ ١٠ أفراد، مكونة من ذكر وعدة=

سألت شمس :

" أليس هذا اسمه؟ "

قال رامي :

" أسميته كولوباس مثل نوعه، أنا أربيه منذ أن كان عنده شهور " . ثم أضاف وهو يداعبه :

" أنا أحب القرود وأفهم فيها، وأعلم الكثير عن عالم الحيوان، فأنا أطوف العالم مع والدي منذ سنوات، وأبي كل اهتمامه هو دراسة الحيوانات " .

سأله طارق :

" وماذا يعني كولوباس؟ "

قال رامي :

=إناث وأطفالهن . وقد اختفى الكولوباس من مواطن عدة بسبب الجور في صيده من أجل الحصول على فروه الجميل . أما في الوقت الراهن فإن أكبر تهديد يواجهه هو تدمير الغابات موطنه الذي يعيش فيه . يتميز الكولوباس بمعدته القوية التي تساعده على هضم أوراق النباتات السامة .

" يعني : المشوَّه " .

قالت شمس باشمئزاز :

" مشوَّه؟ ! "

سأل طارق :

" لماذا أطلقوا عليه هذا الاسم؟ "

" انظر في يده، إنه لا يملك إبهامًا؛ ولهذا سُمي بالمشوه " .

قالت شمس بتقزز : " ياك ! "

قال طارق بإعجاب : " سبحان الله ! "

سأل طارق وهو يمد يده نحو القرد بينما ابتعدت شمس باشمئزاز :

" وأين يعيش؟ "

" كينيا وأنجولا، ويأكل ورق الشجر، أتحب أن تلمسه؟ "

رحب طارق كثيراً بالفكرة، بينما راقبت شمس ما يحدث من بعيد. كان القرد شقيًّا جدًّا ولطيفًا أيضًا .

قالت شمس :

" شكله مثل الرجل العجوز، كأن له لحية بيضاء ! "

نادى الدكتور لحام على رامي :

" هيا يا رامي ، لنترك الأصدقاء يرتاحوا من السفر " .

نظر لهم رامي وقال :

" أراكما لاحقًا " .

سلم عليهما وذهب إلى والده .

قال د . لحام وهو يسلم علي الدكتور نادر :

" أراك غدًا في المركز " .

" ولماذا غدًا؟ ألا يمكنني المجيء الآن للتعرف على المكان؟ "

" بالتأكيد " .

ركبا السيارة ومعهما رامي وهو يلوِّح لطارق وشمس بيده ، وبعد أن رحلوا نادت الأم على طارق وشمس :

" هيا يا أولاد لنرتب أمتعتنا في الغرف " .

كان المنزل المخصص لسكن د . نادر وعائلته يتكون من دورين ، وهو مصمم على طراز يجمع بين الإفريقي والأوربي . الدور الأول به غرفة جلوس ومطبخ على الطراز الأمريكي ، وحجرة سفرة ، وحمَّام ، وفي الدور العلوي توجد ثلاث حجرات نوم وحمام .

دخل طارق حجرته التي أعجبه ذوقها . . كان لون جدرانها أخضر وبها نافذة تطل على الحديقة التي تحيطها المحميَّة، ومن ورائها قمم الجبال الرائعة الجمال. حدَّق طارق من النافذة مستمتعًا ومتأملاً جمال المنظر أمامه، وسرح بأفكاره وتذكر مصر وأصدقاءه، وتساءل: ترى هل سيحب البقاء هنا؟ كانت إفريقيا دائمًا تزوره في أحلامه بجمالها وأرضها وسحرها وكائناتها البرية، والآن ها هي الأدغال أمامه. . يستطيع رؤية الحيوانات من نافذة غرفة نومه، يا لجمالها وروعتها!

بدأ طارق ينظف حجرته ويخرج أمتعته من حقائب سفره ويرتبها في الدولاب. كانت حجرة بسيطة لكن جميلة، بها سرير صغير ومكتب. أخذ يعلق صوره على الحائط أمام المكتب ويُخرج أدوات التصوير والرسم يرتبها بعناية على أرضية الحجرة. كان بحاجة إلى منضدة يضع عليها الأدوات، وقرر أن عليه إخبار والديه بهذا.

أما شمس فدخلت حجرتها ومعها مقشة وعدة التنظيف، كانت ميلا قد رتبت الغرفة ونظفتها لكن شمس شخصية موسوسة وتشمئز من خيالها، فقررت أن تعيد تنظيف الحجرة؛ لأنها لم تثق في أن ميلا تستطيع أن تصل لمستوى النظافة الذي تطلبه هي. أضاءت نور الغرفة التي كانت نافذتها مغلقة، كانت الحجرة لطيفة، أحد جدرانها بنفسجي اللون والباقي أزرق سماوي، وبها سرير صغير ودولاب

ومكتب أبيض. بالرغم من جمال الحجرة نظرت لها شمس بعدم رضا، وبالرغم من نظافة الحجرة قالت بضيق: "ما كل هذا التراب؟ شيء مقرف!"

كانت جميلة ومغرورة، هي تعلم كيف تنظف جيداً، علمتها أمها التي أصرت أن تجعلها تلتفت لأشياء أخرى غير نفسها. لكنها لا تحب التنظيف، التراب الذي يضايق عينيها والمنظفات التي تؤذي بشرة يدها؛ ولهذا كانت ترتدي قفازات مطاطية. اتجهت نحو النافذة وفتحتها ثم صرخت صرخة جمعت أقصى معاني الرعب والاشمئزاز؛ فأمامها كان وجه وطواط كبير جداً يحدق في عينيها وقد تعلق بقدميه من الشجرة.

صرخت شمس فارتعب الوطواط الذي اسيقظ فزعًا، وبدلاً من أن يهرب بعيداً دخل حجرتها وأخذ يتخبط يمنة ويسرة وهو لا يرى شيئًا ولا يسمع إلا صراخًا يصم أذنيه الحساستين.

أما شمس فقد طاردته بالمقشة تحاول أن تضربه بها لتوقعه أرضًا لأنه كان يحول بينها وبين باب الغرفة. كان الوطواط يصرخ بصوت حاد مما زاد من رعب شمس وإصرارها على الإمساك به.

هرع طارق وأمه إلى الغرفة، بينما استقر الوطواط أخيراً فوق الدولاب وبدأ يحاول إدراك الموقف، وأدرك أن شخصًا ما في الحجرة

ينوي شرًّا، فطار بسرعة نحو شمس في محاولة لإرهابها لتتركه لحاله، لكنه قبل أن يدركها كانت هي قد ضربته بالمقشة بقوة وأوقعته أرضًا، ولما دخلت أمها الغرفة اندفعت في حضنها وهي ترتجف.

قام الوطواط من على الأرض مترنحًا من قوة الضربة التي أفقدته توازنه لبعض الوقت فصرخت شمس برعب قائلة: "وطواط يا أمي! وطواط كان يريد مص دمي! كان يريد أن يقتلني!"

أمسكت الدكتورة راجية الوطواط وهي تضحك قائلة:

"اهدئي يا شمس، هذا وطواط آكل حشرات، لا يمص الدم".

أخذ الوطواط يتحرك في رعب وقد أمسكته فقالت ميلا:

"هذا وطواط الليدي بيرن التي كانت تسكن هنا قبلكم".

"الليدي بيرن؟"

قالت ميلا:

"نعم، كانت تربيه هنا ليأكل الحشرات من البيت".

قالت: "لا أصدق أن يربي أحد وطواطًا في بيته!"

قالت الأم: "لا تخافي يا شمس، إنه غير مضر، على العكس.. إنه يخلصنا من الحشرات كأنه مبيد لكن صديق للبيئة".

قالت ميلا : "الليدي بيرن كانت تحب اللعب معه . . إنـه لطيـف جداً" .

قالت شمس بعدم تصديق : "لاااا . . هذا جنون" .

قالت ميلا : "كانت تحبه، وكانت حزينة جداً لفراقه، ولما تركت البيت أوصتني أن أوصيكم به" .

ذهبـت راجيـة نحـو الشـباك وأطلقتـه فطـار وعـاد للشـجرة، وصرخت فيها شمس :

"أمي! ماذا تفعلين؟"

"أتركه يعود لبيته!"

"كيف تتركينه يذهب؟ إنه وطواط!!"

"ما المفروض أن أعمل؟"

"تطردينه من هنا؛ إن شكله بشع!"

"أطرده لأن شكله بشع؟ هذا بيته قبل أن يكون بيتك! ثـم كيـف تُشرِّدين كائنًا خلقه الله لمجرد أن شكله لا يعجبك؟!"

قال طارق بسخرية : "عادي! . . هذه هي شمـس، المظهـر أهـم شيء" .

قالت له شمس : " لا تتدخل أنت " .

قالت الأم : " لم أظنك بهذه السطحية ، نحن لم نأتِ هنا لنطرد الحيوانات من بيوتها ! أنا حقًّا مصدومة فيك " .

☼☼☼

بعد أن عادت الأمور لطبيعتها وأقنعت راجية شمس أن تغلق النافذة كي تضمن عدم دخول الوطواط ، وأنه لو دخل فلن يؤذيها فهو آكل للحشرات ، عاد طارق إلى حجرته ليكمل ترتيب حاجياته .

كان قد انصرف كل واحد منهم إلى شأنه ، وأغلقت شمس نافذة حجرتها وهي تقسم ألَّا تفتحها ثانية أبدًا ، ولما دخل طارق حجرته انطلق إلى النافذة ممسكًا كاميرته يصور المشهد الخلاب للجبال الإفريقية وسهولها سارحًا في أفكاره عمَّا ينتظره في هذا البلد من مغامرات واكتشافات . بالطبع لأن طارق كان سارحًا في أفكاره لم ينتبه إلى أن تريسي في الحديقة أسفل نافذته تستكشف حديقة المنزل الجديد . كانت مستمتعة بجو المغامرات وبالغموض المحيط بالمنزل الذي لم تكتشفه بعد ، وبعد فترة لمحت شيئًا غريبًا يزحف بجانب السور ويتخفى بين الشجيرات . . اقتربت منه وهي تشعر بالفضول . . كان شيئًا مستديراً مليئًا بالأشواك ، وكان يتحرك بحرية غير عابيء بشيء ، وبدا شريراً كالشيطان بأشواكه ! وسمعته يتحدث مع نفسه ويقول : " شمشم . . أشم رائحة صرصور ! بالتأكيد صرصور ! يا له من يوم رائع ! أين هو ؟

أين هو؟ "

لكنه شعر بظل كبير لشيء ضخم يغطيه يقف خلفه، فالتفت ونفش أشواكه دفعة واحدة في الوقت الذي اقتربت فيه تريسي منه وهي تتشممه لا تدري ما هذا الشيء و . . . ودوَّى صراخها في أرجاء المنزل!

جرت راجية أسفل السلالم تعدو بسرعة هي وطارق لما سمعا صراخ تريسي قادمًا من الحديقة، فهرولَا إلى أسفل في الوقت الذي دخلت فيه تريسي من باب المنزل بمنظرها المرعب، فقد كان وجهها مغروسًا فيه أشواك كثيرة جدًّا، أشواك قنفذ.

صرخت راجية من فَرْط المفاجأة: "تريسي! ماذا حدث؟ "

لحقت بهما ميلا وشمس التي صرخت لما رأت تريسي والدماء تتدفق من وجهها وهي تصرخ بألم، بينما تفاعل طارق بسرعة بأن أسرع يساعد أمه على تهدئة تريسي، أما ميلا فقالت:

"يبدو أنها حاولت أن تلعب مع أبي الشوك! "

سأل طارق برعب:

"من أبو الشوك هذا؟ "

"إنه القنفذ الذي كانت الليدي بيرن تربيه في الحديقة " .

قالت شمس :

" ياللهول! الليدي بيرن ثانية؟ هـذه الليـدي بـيرن كانـت غريبـة الأطوار! "

" كانت تربيه ليأكل الحشرات أيضًا " .

أخذت راجية تريسي إلى حجرتها وأجلستها فوق سريرها وطلبت من طارق أن يمسكها جيدًا . وفتحت إحدى الحقائب وهي تقول :

" للأسف، ليس معي الأدوات المناسبة " .

وأخذت من الحقيبة مسكنًا يرش وبدأت ترشه على وجه تريسـي وهي تغمي عينيها بيدها، ثم أخذت شيئًا يشبه الكماشـة مـن الحقيبـة وقالت لطارق :

" طارق، ساعدني أن أشد الأشـواك . . أمسـكها حتـى لا تزيـد الأمور سوءًا " .

أما شمس فخرجت من الحجرة بسرعة :

" لا أستطيع رؤية هذا " .

نظرت الأم لتريسي وقالت :

" تريسي لن تشعري بشيء، أرجوكي لا تتحركي " .

وأمسكت الأم أول شوكة مـن الجـذور وشـدتها فخرجـت، ولم

تشعر تريسي، لكن الدماء تفجرت مكان الجرح فغطتها الأم بسرعة بقطنة مطهرة وضمادة لاصقة. . وهكذا. . وبعد ساعة كانت الأم قد انتهت من جذب كل الأشواك من وجه تريسي الذي امتلأ بالجروح المضمدة.

زفرت الأم ومسحت جبهتها من العرق قائلة:

"الحمد لله؛ انتهيت. . سأعطيها حقنة مضاد حيوي وإن شاء الله ستكون بخير".

ربت طارق على تريسي واحتضنها وهو يقول:

"لا تخافي يا تريسي، ستكونين على ما يرام".

أعطت الأم حقنة المضاد الحيوي لتريسي بينما أحضر طارق لها بعض الطعام، لكنها رفضت أن تأكل وبدت حزينة، وجلست على البساط في حجرة طارق وبدأت تغفو. . خرجت الأم وطارق من الحجرة بهدوء تاركين تريسي تستريح في الحجرة وقالت راجية:

"يجب أن أجد هذا القنفذ".

وبالفعل نزلا إلى الحديقة وأخذا يبحثان عنه، ولما وجداه كان من الواضح أنه قد فقد بعض الشوك. نظرت إليه راجية وسألت طارق:

"ماذا تظننا فاعلين به؟"

فقال وقد صعب عليه لأنه فقد بعضًا من أشواكه:

" إنه لم يخطئ يا أمي ، أعتقد انه كان خائفًا من تريسي " .

سكتت الأم قليلاً ثم اتجهت نحوه والتقطت شيئًا من الأرض واقتربت منه ، فبدأ ينفش أشواكه ، فاقتربت وأعطته بعض حبات الفاكهة ، فاقترب بحذر وأكلها :

" لا يبدو لي خطيراً ، معك حق ؛ يبدو أنه ارتعب من وجود تريسي في الحديقة " .

ثم وقفت وهي تنفض يديها وقالت : " هيا ، لدينا الكثير لنفعله " .

سأل طارق : " وأبو الشوك؟ "

نظرت راجية لأبي الشوك وقالت :

" بالتأكيد لن أطرده من بيته " .

عاد كلٌّ إلى حجرته يرتب أمتعته ، لكن الثلاثة وقت غروب الشمس تركوا ما بأيديهم كي لا يُفوِّتوا جمال الغروب . كانت الشمس تغيب وراء الجبال التي ألقت بظلالها على سهول السافانا المحيطة بالبيت في مشهد ساحر . وقف طارق وشمس وراجية كلٌّ ينظر من نافذة حجرته يتأمل اللوحة الفريدة المرسومة بإبداع.

☼☼☼

في صباح اليوم التالي كانت تونجا قد انتهت من إرضاع صغيرها، حينما دخلت كينا اللبؤة الطيبة زوجة سايري ومعها صغيرتها. كينا هي الزوجة الرابعة لسايري ووالدة الشبلة نيللي التي تكبر سيزر بستة أشهر والتي كانت ولادتها سببًا في زيادة غيرة ريتا وزونا، زوجتي سايري، من كينا وزيادة مضايقاتهما لها ولوليدتها، والتي كانت أحيانًا تصل إلى حد الأذى الذي لولا ستر الله لكان تسبب في موت الصغيرة.

ريتا وزونا زوجتا سايري الأخريان ـ وهما لبؤتان شريرتان ـ برعتا في الأذية وتعكير صفو سايري والإيقاع بينه وبين زوجتيه الطيبتين تونجا وكينا. أما كينا فقد كانت صديقة تونجا وأحب اللبؤات إلى قلبها؛ ولهذا كانت شديدة السعادة بولادة سيزر، وأحبته بشدة كأنه وليدها. سلمت على الأم ونظرت للرضيع في حنان وحب وقالت: "كيف حال صغيرنا؟"

ردت تونجا: "بخير! انظري.. إنه يفتح عينيه!"

اقتربت كينا ونظرت لوجه الصغير وأصابتها الدهشة؛ فقد كان ينظر لها بعينين زرقاوين كالسماء في نقاوتهما وبدا أكثر جمالاً وملائكية.

بمرور الأيام كانت تونجا تزداد حبًّا لوليدها وسعادة به، وحزنًا من

تصرفات سايري وتقلب مزاجه، فقد كانت زونا وريتا تستغلان انشغال تونجا بوليدها في الإيقاع بينها وبين سايري.

منذ اللحظة التي وقع فيها بصر زونا وريتا على تونجا وهما يكرهانها ويكرهان حب سايري لها، والآن ـ وبعد ميلاد سيزر الشبل الأبيض الجميل واهتمام سايري المفرط به ـ كان عندهما دافع أقوى للتخلص منها ومن وليدها.

فقد كانت ريتا قد وضعت شبلاً أكبر من سيزر بعدة أسابيع، أسمته جنجو، لكن سايري لم يكن يحبه ولا يهتم به كما كان يحب سيزر، وكانت الفكرة أن سيزر أحبُّ لأبيه من جنجو وأنه يومًا ما قد يصبح هو زعيم العائلة وقائدها، تثير جنونها وغضبها.

أسرَّتْ ريتا بما يجيش في صدرها لزونا الأقرب لها من اللبؤات الأربع، زونا حسود غيورة وشرسة ليس لها أشبال، ولأنها حقود كان سايري لا يحبها كحبه زوجاته الأخريات، لا لشيء إلا لأنها كانت خبيثة وكانت تكره تونجا. وما كان لها أن تترك سايري يسعد مع زوجتيه الأفضل منها، فكانت تسعى دائما للإيقاع بينهم وافتعال المكائد لإثارة غضبه وتعكير الجو بينهم.

يومًا ما جلست زونا وريتا بعيدًا عن العائلة يراقبان اهتمام سايري بسيزر ولعبه معه، قالت زونا لريتا:

" الأسد الأبيض هذا قد يصبح في يوم من الأيام الملك . . . إلا إذا حدث له حادث ! "

سألت ريتا :

" ماذا تقصدين ؟ "

قالت بخبث :

" الغابة مليئة بالأخطار ، يمكن جدًّا أن يموت في يوم وليلة " .

قالت ريتا بحدة وكره :

" مستحيل ، ألا ترين كيف يحبه والداه ويحميانه؟ ! لا يمكن لخطر أن يصل إليه وهو في حِمَى عائلته " .

ردت زونا :

" لا يمكن لخطر خارجي أن يقضي عليه ، لكن ممكن لخطر داخلي أن يسحقه " .

سألتها ريتا بعدم فهم :

" تقصدين من؟ "

قالت بخبث :

" أقصد سايري ذات نفسه " .

شهقت ريتا مستفهمةً :

" وكيف يقضي سايري على طفله؟ "

" دعي لي هذا الأمر ، سايري سريع الغضب ويحب القوة ويتباهى بها ، وأنا أعلم كيف أوقع به وأجعله يـؤذي الشـبل الصـغير ، لكـنني أريد مساعدتك في نشر أمر في الغابة كلها ، أن الأسود التي تولد بيضاء تكون ضعيفة وهزيلة ولا تصلح للزعامة ، وتموت في سن صغيرة " .

" وسايري سيصدق هذا؟ "

" سايري سيصدق وسيجعله هذا مهمومًا غاضبًا دائمًا " .

" لا أظن أن هذا سيجدي " .

" لقد مات زانجا مبكرًا ، أليس كذلك؟ ولم يكن في قوة سايري أو والده " .

" هذا صحيح " .

" إذن فسوف يصدق سايري ؛ فقـد رأى بنفسـه ، فلنبـدأ بالمهمـة ودعي لي باقي التفاصيل ، حادث صغير مخطـط بدقـة ويمـوت الشـبل وتنتهي القصة ويصبح جونجو هو القائد والزعيم " .

هيفـــاء

"هيا يا أولاد سنتأخر".

هتف د. نادر وهو ينادي شمس وطارق ليسرعا بالنزول للحاق بالمدرسة.

نزلا بسرعة وقد لبس كلاهما ملابسه وتأنقت شمس كالعادة وهي تقف أمام المرآة.. كانت تنتظر وقع دخولها المدرسة على الطلاب الأفارقة وكيف سينجذبون إلى بشرتها البيضاء وجمالها وأناقتها. في الطريق إلى المدرسة أخبر الدكتور نادر طارق أنه سيقوم غداً بجولة سفاري سريعة يتفقد فيها الغابة مع الدكتور لحام، وسأله إن كان يريد أن يرافقه، فأجاب طارق بسرعة دون تفكير:

"بالتأكيد، أريد أن أكون معك، هل هذا سؤال؟!"

ابتسم الدكتور نادر، فقد كان يعلم جيداً أن طارق لن يتردد في القبول. حين نزل طارق وشمس من السيارة وجدَا رامي ينتظرهما أمام الباب.

عندما رآهما رامي ابتسم وقال:

"أنا آتي بالدراجة وقلت: أنتظركما هنا لعلكما تحتاجان إلى مساعدة في أول يوم لكما في المدرسة".

بمجرد أن دخلا من أبواب المدرسة وقفا مندهشين. لم يتوقعا أن تكون المدرسة هكذا. كان إحساسهما مزيجًا من خيبة الأمل والدهشة؛ فقد كانت مدرسة كأي مدرسة رأوها في حياتهم وإن كانت أفضل، فيبدو أن مبانيها جديدة نوعًا ما، وكل شيء فيها نظيف وجميل وعلى أحدث صيحة. اللافت أن عدد الأجانب بها أكثر من عدد أهل البلد، كان بها جنسيات من كل العالم، وبالطبع لم تكن شمس أجمل ولا أشيك من فيها.

قال رامي لما رآهما هكذا:

"مالكما؟ أهذه أول مرة تدخلان مدرسة؟"

قال طارق:

"لا، لكن ظننتها ستكون مختلفة".

قال رامي متهكمًا :

" هل ظننت أنك ستلاقي أكواخًا وتلاميذ عراة بلا ملابس يقفزون على الأشجار ويرقصون؟! هذه مدرسة دولية يدخلها أبناء الجاليات الأجنبية، لأن المنهج دولي " .

قالت شمس بصوت خافت وضيق وهي تنظر إلى البنات الفاتنات في كل مكان ولا أحد يعيرها اهتماما :

" كأنني شبح غير مرئي! "

جذب رامي طارق من يده قائلاً :

" هيا بنا، أنت معي في الفصل، وشمس . . أنتِ في المبنى هناك " .

وأخذ طارق وأسرعَا إلى الفصل .

دخل رامي وطارق الفصل ورامي يشرح لطارق ويوضح له كل شيء ويعرفه على بعض التلاميذ أصحابه . وقف طارق ورامي يتحدثان مع إحدى التلميذات وتدعى إيزابيل، ورامي يحاول بكل جهده أن يجعل صوته هادئًا ومتزنًا، مُخفيًا اضطرابه وهو يتحدث إليها، وطارق يكتم ابتسامة كادت تفلت منه، فمن الواضح أن رامي معجب بها، لكن قطع ابتسامة طارق المكتومة أصوات كريهة لثلاثة

أولاد يمسكون تلميذًا ضعيفًا نحيفًا بعنف ويخطفون نظارته ويستهزئون به والفتى يبدو متألمًا لجرح كرامته والاستهزاء به أمام تلاميذ الفصل .

" هذا جاكسون وصديقاه معدوما الشخصية فريد وكوبر " .

قال رامي لطارق بصوت خافت :

" جاكسون هذا أبوه يملك قرى سياحية هنا ، وهناك شائعات تقول إنه يتاجر في الحيوانات بشكل غير شرعي ، وهو يملك بارك يقال إنه يسمح للصيادين بدخوله مقابل نسبة من الأرباح ، لكن ما أؤكده لك أنه غني جدًّا ، وأنك ستكرهه جدًّا " .

جاكسون فتى أحمر الشعر ذو عينان زرقاوان ، وهو أطول قليلاً من طارق ومن بقية الأولاد في الفصل ، ويبدو أنه كان يدرك ذلك ويستغل هذه النقطة لصالحه أسوأ استغلال . أخذ الثلاثة يدفعون الفتى بشدة حتى وقع أرضًا ، فأسرع طارق يساعده على النهوض ، فقام ينفض ثيابه بخجل وشكر طارق :

" شكرًا " .

" العفو؟ هل أنت بخير؟ "

اندفع جاكسون يدفع الفتى ويقف في وجه طارق :

" وأنت مَن؟ والدته؟ ! "

نظر له طارق في برود وقال :

" وأنت من كي تتدخل في حديث لا يخصك؟ "

برقت عينَا جاكسون، فلم يكن يتوقع هذا الرد من طارق وقال :

" أنا ماذا؟ أهلاً، يبدو أن أيامك هنا ستكون معدودة يا فتى! "

والتفت إلى صاحبيه اللذين وقفا خلفه وأخذا يسخران من طارق وهو يشير إليه قائلاً :

" يقول لي أنا مالي؟! ها ها ها " .

أخذ يضحك، ثم فجأة كشر في وجه طارق ونظر في عينيه مهدداً :

" أنا رئيس جمهورية هذا الفصل، فاهم أم تريدني أن أفهمك؟! "

" هذا يعني أنك خادم لهذا الفصل، وإلا يبدو أنك لا تفهم ما تعني كلمة رئيس جمهورية؟! "

هنا اندفع رامي يسحب طارق من ذراعه ليبعده من أمام جاكسون، فلما ذهب معه ضحك عليه جاكسون وصاحباه وسط ذهول جاكسون من رد طارق، لكنه تدارك الأمر لما رأى الكل يضحك عليه فقال بصوت مرتفع :

" جبان! "

فأفلت طارق يد رامي والتفت إليه فنظر له جاكسون باستفزاز فقال له رامي :

" إنه يستفزك ليتشاجر معك " .

حينها دخل المدرس الفصل ، فجلس كل واحد في مكانه ونظرة الوعيد لا تفارق عيني جاكسون .

قال الأستاذ :

" أولاً أحب أن أرحب بزميلكم الجديد طارق نادر " .

ثم بدأ درس الأحياء الذي كان يتحدث عن مملكة الحيوانات ، وحين بدأ يتحدث عن العائلة القططية واستدار إلى السبورة قلد جاكسون صوت القط مما دفع الفصل للضحك وأسكتهم الأستاذ بغضب .

ثم طلب الأستاذ منهم إغلاق ستائر النوافذ ، فأظلم الفصل ، وأدار المونيتور الذي عكس صوراً للعائلة القططية على السبورة البيضاء . وعلق الأستاذ على الصور قائلاً :

" عائلة القطط عائلة كبيرة ، منها الشيتا والفهد والأسد والنمر والقط البري وغيرها ، أكيد معظمكم رآهم في الطبيعة ، في الغابة هنا في جنوب إفريقيا " .

أومأ معظم التلاميذ فقال جاكسون بصوت مرتفع :

" أنا عندي كل هؤلاء في البيت " .

نظر له الكل بفضول فأضاف :

" محنطين . أبي يصطادهم ويقـ . . " .

قطع المدرس كلامه وهو غاضب :

" لا تتحدث دون أن ترفع يدك ، لـيس لطيفًـا أن تشـرح للفصـل كيف يقتل والدك الحيوانات ويحنطها " .

سرت همهمات في الفصل ونظر طارق لرامـي فهـز رامـي رأسـه كأنما يقول : ألم أقل لك؟!

ضحك جاكسون بعصبية وقال :

" يا مستر ، إنها مجـرد حيوانـات ، ثـم إن الأُسـود شـريرة وتقتـل الحيوانات الطيبة " .

" هذا كلام لا يصدر إلا من شخص جاهل " .

قال الأستاذ بهدوء فاحمرَّ وجه جاكسون حتى أدرك لـون شـعره ، فيما التفت المعلم للفصل وسأل بتحدٍّ :

" من يرد عليه؟ "

رفع طارق يده فأذن له الأستاذ فقال :

"الأسود ليست شريرة، ليس معنى أنها تصيد لتأكل أنها شريرة وخير لها أن تموت، على العكس. . والحيوانات آكلة اللحوم تحافظ على التوازن البيئي، ولولاها لكانت الحيوانات العاشبة أكلت كل شيء أخضر على الأرض وماتت وتسببت في التصحر وموت الكائنات كلها! ثم إن الأسد لا يقتل إلا إذا كان جائعًا، ليس حبًّا في القتل، ونفس هذا الكلام ينطبق على كل العائلة القططية. وهناك شيء آخر أكثر أهمية وهو أن الأسود عادة ما تأكل الأفراد الضعيفة المريضة أو المُسنَّة؛ مما ينقِّي سلالة الحيوانات من الأمراض التي إن انتشرت في القَطيع فقد تقضي عليه بالكامل، وبأكل الحيوانات المريضة لا تبقى سوى الحيوانات القوية التي تتكاثر وتنتج حيوانات أقوى وأقوى، مما يحافظ على بقاء النوع سالمًا من الانقراض، فلولا الأسود والحيوانات اللاحمة لانتهت الحياة الطبيعية! "

"ممتاز! "

قالها الأستاذ بابتسامة على وجهه ناظرًا لطارق بفخر.

ازداد احمرار وجه جاكسون هذه المرة من الغضب وأخذ ينظر لطارق بتوعد، وابتلع رامي ريقه بصعوبة، فهو يشعر أن صديقه الجديد قد وضع نفسه في اللائحة الأكثر سوادًا بالمدرسة، لائحة جاكسون السوداء!

☼☼☼

دخلت شمس فصلها وجلست دون أن ينتبه إليها أحد، كان الفصل مهرجانًا، البعض يغني، والآخر يهرج ويلقي بعضُهم بعضًا بالأوراق المكرمشة والكراريس ويضحكون، وحين دخلت المعلمة جلس الكل في مكانه فقالت بابتسامة لطيفة:

"اليوم لدينا تلميذة جديدة".

ابتسمت شمس، سوف يبدأ الفصل الاهتمام بها الآن، قالت المعلمة بصوت مبتسم:

"ويلما إدجار كالاهان".

اختفت الابتسامة الكبيرة من وجه شمس، ووقفت ويلما في مكانها ليحييها الفصل ثم جلست، واستدارت المعلمة للسبورة وأخذت تكتب عليها الدرس.

ساد الهدوء والمعلمة تكتب على السبورة. تنحنحت شمس فلم يلتفت لها أحد، فقامت من مكانها لتذهب للمعلمة عند السبورة، لكن قدمها تعثرت في إحدى الحقائب الموضوعة على الأرض فوقعت على وجهها، وانفجر الفصل ضاحكًا، فقامت ووجهها قد احمرَّ من الخجل والتفتت للمعلمة التي سألتها:

"من أنت؟"

"أنا طالبة جديدة، اسمي شمس".

" هل أنت واثقة أنك في هذا الفصل؟ اسمك ليس في الكشف عندي، أريني بطاقتك " .

ناولتها البطاقة فنظرت فيها وقالت :

" أنت المفروض في فصل ثانية ثالث، وهذا ثانية ثاني . . أنا آسفة " .

ابتلعت شمس ثاني إحراج لها وقالت بصوت كالهمس :

" شكراً " .

وأخذت أشياءها بسرعة وخرجت كالبرق من الفصل وهي تسمع ضحكات التلاميذ الخافتة وسخريتهم منها .

لما وجدت شمس الفصل الصحيح طرقت الباب حتى سمعت بعد فترة الإذن لها بالدخول فدخلت، فقابلتها المعلمة بوجه صامت وهي تنظر لها من فوق النظارة ثم سألتها :

" أي خدمة؟ "

" أنا شمس . . تلميذة جديدة " .

ومدت يدها بأوراقها بحرج وهي تشعر أن نظرات التلاميذ كلها مركزة عليها، فأخذت المعلمة الورق ودون أن تقرأه قالت لها :

" أكيد أنت شمس؟! أهلاً بك، تفضلي اقعدي، لكن لا تتأخري ثانية على حصتي . . وإلا ستقضينها في الخارج " .

هزت شمس رأسها باضطراب والتفتت لتجلس، وأخذت تسير ببطء باحثة عن مكان حتى وجدت مكانًا في الصف قبل الأخير حيث يقعد بجانبها ولد ضخم يلبس ملابس سوداء وقد انتصب شعر رأسه بالجيل كالقنفذ، يلبس جماجم، ويبدو غير ودود لكن فضولي، فقد أخذ ينظر إليها باهتمام وهو مقطب حاجبيه، وعلى الناحية الأخرى فتاة تلبس نظارة نظر سميكة العدسات وشعرها على هيئة ذيل حصان على كل جانب، وتضع تقويمًا في أسنانها.

ابتسمت لها شمس، فأشاحت الفتاة بوجهها عنها باشمئزاز. بعد فترة أحست شمس بحركة مضطربة ونظرت إلى الفتاة ذات ذيلي الحصان ووجدتها تبحث عن شيء ما على الأرض في توتر ورعب، ثم فجأة جحظت عينا الفتاة لما تحولت عيناها أسفل مقعد شمس، ثم نظرت الفتاة إلى شمس في رعب في اللحظة التي شعرت فيها شمس بشيء ما يجري متسلقًا ساقها فصرخت وقامت من مكانها فوقع المقعد على من وراءها، والتفت الفصل كله ناحيتها ليجدوها تصرخ وعلى ساقها شيء يشبه الثعبان.

كانت شمس تصرخ وهي تمسك بالشيء من تحت تنورتها وذيله يتراقص لا يستطيع الصعود أو الهبوط:

"ثعبان، ثعبان!"

صرخ الكل فأمسكته شمس بهستيريا وأطاحت بـه ليخـبط رأس أحد التلاميذ الذي صرخ بدوره، وصرخ كل من في الفصل أكثر أكثـر وجروا إلى الخارج، لكن الفتاة ذات الملابس السـوداء أخـذت تبحـث عن الشيء وهي تنادي بقلق:

"بازوكا؟ أين أنت؟ حرام عليكم! لا تخيفوه.. لا تدوسوه!"

ثم التقطت الفتاة الثعبان وأخفته في ملابسها وشمس تراقبها وقـد انكمشت في زاوية الفصل برعب وهي لا تنطق.

بعد فترة هدأ الفصل ونهرت المدرسة شمس:

"أنت! كيف تصرخين هكذا؟ هذا مجرد برص!"

ثم نظرت للفتاة الأخرى:

"وأنت! أهذا البرص ملكك؟"

"هذا ليس برصًا.. إنه بازوكا".

"وما البازوكا؟"

"بازوكا اسمه، وهو سحلية زجاجية٦.. لـيس برصًـا.. كـان

---

(٦) Glass Lizard السحلية الزجاجية هي نوع من السحالي بـدون أرجـل أو ذات أرجل شديدة القصر؛ حتى إنه يصعب تمييزها عن الثعابين، وما يفرقها عـن=

يشعر بالبرودة اليوم في الصباح فوضعته في حقيبتي ليتدفأ لكنه خرج منها " .

" لا تحضري أي حيوان معك المدرسة ثانية ، هل تفهمين؟ "

ونظرت لشمس والفتاة :

" أنتما الاثنتان عندكما حبس ربع ساعة بعد انتهاء اليوم الدراسي ! "

قالت شمس باحتجاج :

" لكنني لم أفعل شيئًا ! "

" كلمة ثانية وستصبح نصف ساعة ! "

صمتت شمس ونظرت للفتاة بكراهية شديدة ، أما الفتاة فأشاحت بعينيها عن شمس وربتت على رأس بازوكا الذي أخرج رأسه من بين أزرار قميصها بعد أن وضعته في ملابسها كي لا يؤذيه

=الثعابين هو أن لها جفنًا وأذنين . يطلق عليها السحلية الزجاجية ؛ لأنها عندما تتعرض للخطر ينفصل ذيلها عن جسمها ككل السحالي ولكنه يتكسر كالزجاج إلى قطع متحركة .

أحد، وأخذ ينظر لشمس التي اقشعر بدنها من منظره.

قالت الفتاة وهي تبتعد:

"حبس حبس! المهم بازوكا بخير".

☼☼☼

انتهى اليوم الدراسي وقعد طارق ورامي ينتظران شمس على إحدى السلالم. أتت شمس لكنها لم تكن على ما يرام، لم تكن سعيدة. سألها طارق لما رآها قادمة:

"لماذا تأخرتِ؟ مالكِ؟ أوجدت فتاة تملك حقيبة أجمل من حقيبتك؟"

"ظريف جدًّا! متى نعود للمنزل؟ أريد الخروج من هنا بأي شكل!"

قال رامي:

"إنني انتظر أختي لا أدري لِمَ تأخرت هكذا؟"

جلست على إحد السلالم وهي سارحة فقال طارق:

"مالكِ يا شمس؟ أنتِ مُستاءة فعلاً!"

انفجرت بغضب وهي تكاد تبكي من الغيظ:

"أنا أكره هذه المدرسة؛ أريد العودة إلى مصر!"

ربت طارق على كتفيها بقلق قائلاً:

"ماذا حدث؟ احكي لي.. اهدئي، احكي لي!"

فحكت شمس ما حدث وأضافت:

"بنت عجيبة، ملابسها، شعرها.. لقد وضعت الثعبان في ملابسها، أتصدق؟! إن جسمي يقشعر كلما تذكرتها!"

سأل طارق:

"أيعني هذا أن الثعبان كان لها؟"

"يبدو هذا.. لكنها بالتأكيد مجنونة".

لم يلحظ أيٌّ منهما خلال حوارهما التغير الذي طرأ على وجه رامي وهو يسمع حكاية شمس، ظل صامتًا لم يعلق كعادته، وبدا على وجهه الذي احمرَّ أنه في مأزق. ثم نظر رامي برعب وحرج للفتاة التي ظهرت خلف شمس ووقف شعر رأسه لما قالت:

"رامي! من هؤلاء؟"

انتفض جسد شمس ثم صرخت لما رأت الفتاة وقفزت تختبئ وراء طارق وهي تصيح:

"إنها البنت المجنونة!"

صاح طارق :

" شمس . . عيب عليك ! "

أما رامي فذهب ووقف بجانب الفتاة التي صاحت :

" مجنونة؟ أنا؟ رامي . . مَنْ معدومو الأدب هؤلاء؟ أصحابك؟ "

صرخ رامي :

" عيب يا هيفا ! "

صاحت شمس :

" أنت تعرفها؟ "

صاحت هيفا :

" عيب؟ أتقول إن العيب عليَّ؟ "

صاح طارق :

" من هذه يا رامي؟ "

صاحت شمس :

" من هذه يا طارق؟ "

صاحت الفتاة، " من هؤلاء يا رامي؟ "

فصاح رامي :

" هذه هيفاء . . أختي الصغيرة " .

صرخ طارق وشمس في صوت واحد :

" ماذا؟ "

ثم انخرسا من فرط المفاجأة بينما سألت هيفا رامي بحدة :

" أتعرف هؤلاء الحمقى؟ ! "

صاح طارق :

" رامي ! اجعلها تصمت " .

فقال رامي :

" هيفا ! عيب . . إنهما طارق وشمس ولدا الدكتور نادر زميل أبي ، وقد وصلا من مصر منذ يومين " .

قالت هيفا :

" خبر غير مهم على الإطلاق " .

شهق طارق وشمس ، فلم يتوقعا رد فعلها هذا ، بينما صاح فيها رامي :

" حقًّا لقد زودتِها ! "

نظرت له هيفا وقالت :

" أنا التي زودتها؟ لقد قالت علي مجنونة وأنت سكت، وتقول لي : عيب؟ حسنًا، أنا سأذهب للمنزل، أدولا ينتظر . . هل ستأتي معي؟ "

قال رامي بتردد :

" كلنا قادمون . . سنوصل طارق وشمس في الطريق " .

صاحت شمس :

" لن أركب مع هذه المجنونة . . لديها ثعبان في ملابسها ! "

أسكتها طارق وقال لرامي :

" اذهب أنت يا رامي وأنا وشمس سنرحل مع بعض " .

ردت هيفا :

" هذا أفضل ! رامي هل ستأتي معي؟ "

نظر لها رامي ثم نظر لهما وقال :

" لا " .

فتركته وغادرت وظل هو واقفًا لا يدري ما يفعل . نظر لطارق وشمس وقال :

" أنا آسف على ما حدث، هذه هي هيفاء . . تضعني في مواقف محرجة دائمًا، لكنها . . صدقوني . . طيبة " .

نظرت له شمس بحدة بينما قال طارق :

" حصل خير . . نحن أيضًا نأسف على ما حصل . شمس هي التي أخطأت في حقها أولاً " .

صاحت شمس :

" نأسف على ماذا؟ نحن لم نفعل شيئًا! أنا لم أخطيء في حق أحد . . أنا وصفتها بأنها مجنونة، وهي فعلاً هكذا! "

أسكتها طارق :

" كفى، انتهينا " .

وطلب منها ان تهدأ .

شعر رامي بالحرج، لقد أحب صداقة طارق ولا يريد أن يخسره، كما أن شمس فعلاً هي من بدأ هذا الشجار . . فماذا يفعل؟ وكأن طارق أحس بما يدور في ذهنه فاقترب منه وربت على ظهره وسأله :

" كيف السبيل للعودة إلى المنزل؟ "

فقال رامي بضيق :

" يبدو أننا سنسير حتى البيت؛ فليس معي نقود . . ليس معي أي

نقود لنركب تاكسي " .

في نهاية اليوم وصل طارق وشمس المنزل ودخلا من الباب بسرعة مكفهري الوجه، فسألتهما الأم وهي واقفة في المطبخ بابتسامة :

" كيف حال المدرسة؟ "

فقال طارق وهو يجري أعلى السلم إلى حجرته :

" رهيبة! "

أما شمس فلم ترد واندفعت إلى حجرتها وأغلقت الباب خلفها بعنف .

في حجرتها جلست شمس على سريرها تسترجع يومها الغريب، ثم قامت ونظرت في المرآة وهي تمشط شعرها، ثم ذهبت فنظرت من النافذة تتأمل الشمس وهي تغرب وتحدث نفسها : " ترى كيف كان شكلي اليوم وأنا أصرخ؟ ماذا قالوا علي؟ لا أصدق أن هناك فتيات مجانين بهذا الشكل؟ "

وفي حجرتها أمسكت هيفا ببازوكا ونظرت هي الأخرى من نافذة معملها وبجانبها فأر يركض في كرة من الزجاج بلا انقطاع، أخذت تفكر : " فتاة غريبة فعلاً، كانت ستقتل بازوكا وتدهسه لمجرد أنه سحلية . كم هو جميل هذا الكون ومنظم، ترى هل وصل رامي أم لا؟ "

أما رامي فوقف في حجرته ينظر لصورة (ميسي) التي يعلقها على

الحائط ثم جلس على إفريز النافذة يراقب غروب الشمس الفائق الجمال وهو يحدث نفسه : "ترى هل سيرضى طارق أن يستمر في صداقتي بعد ما حدث؟ أم سيكرهني بسبب هيفاء؟ "

أما طارق فكان يفكر هو الآخر وقد وقف يتطلع إلى غروب الشمس الجميل من نافذة حجرته : "ترى هل أخطأت حين ظننت أنني سأكون سعيداً هنا؟ ترى هل سيرضى رامي أن نظل أصدقاء بعد ما حدث؟ " ثم تذكر جاكسون وما حدث ذلك اليوم : "أما مغرور . . ويقول علي جبان، الجبان هو الذي يقتل الحيوانات الضعيفة ويحنطها ويتفاخر بهذا . أما أنا فأنا أحب الحيوانات والطبيعة وأهتم بها، وغداً ستثبت الأيام من الجبان " .

قرد الكولوباس

الفراق

مر شهر منذ أن بدأت زونا في تنفيذ خطتها الشريرة، وأخذت هي وريتا تنشران الشائعات عن سيزر وزانجا، وأينما كان سايري يذهب كان يرى الحيوانات يهمس بعضها لبعض وهي تنظر له وتضحك. أما كينا فقد استمعت بطريق الخطأ لحديث دار بين زونا واحد أبناء آوى حيث ذكرت فيه زونا أن سايري القوي أنجب شبلاً ضعيفًا مريضًا لا مستقبل له مثل زانجا قريبه، وسوف يموت في سن مبكرة مثل زانجا وتستولي الأسود الأخرى على ملك سايري.

لم تصدق كينا ما سمعت وواجهت زونا بما سمعت فأنكرت زونا واتهمتها بالكذب، وفي يوم من الأيام بينما سايري راقد تحت ظل شجرة إذا ببعض القرود تقذفه بفاكهة من فوق الشجرة وتسخر منه وتقول له: كم هو عظيم.. فقد أنجب شبلاً مريضًا ضعيفًا كالفراش

الرقيق! غضب سايري بشدة وضرب الشجرة بقوة فوقع أحد القرود. . أمسكه سايري وكاد يفتك به، وسأله من يقصد، فحكى له القرد كل ما سمع، وكيف أن الغابة كلها تعلم بهذا الموضوع إلا هو.

ظل الضغط على سايري لأيام، تأتي على مسامعه كلمات حيوانات الغابة فتزيده غضبًا، بالإضافة إلى مكائد زونا وريتا. . ويومًا ما نشب خلاف بينه وبين تونجا، لطم خلاله سيزر الصغير بيده لطمة أطاحت به بعيدًا ليرتطم بنتوء بارز فشجت رأسه بجرح غائر بين عينيه، وأخذ الصغير يصرخ ألمًا بينما الدم يتدفق بغزارة. . ولما رأت تونجا الدماء تتدفق من بين عيني وليدها أصابها الذعر وهجمت في غضب شديد على سايري تدافع عن حياة وليدها، واشتبك سايري وتونجا في عراك شديد، وبينما هي تدافع عن الصغير وهو يضربها إذا بكينا تأتي وتأخذ الصغير في فمها وتجري بعيدًا لتحميه. . رأتها كل من زونا وريتا وتلاقت أعينهم وأدركت كينا أن الصغير في خطر حقيقي فجرت به وجرتا وراءها حتى وصلوا لأحد الجبال، فبدأت كينا تتسلقه فتبعتاها، ولما بلغت حافة الجبل أدركت أن عليها أن تقاتل لا محالة، لكن كيف؟ وماذا عن الصغير؟ لن تتمكن من الدفاع عنه وهي تحمله! لكنها وجدت تحت أرجلها شقوقًا في الصخور فوضعت سيزر داخل أحد الشقوق وطلبت منه التزام الصمت وغطت الشق بأوراق الشجر والتفتت لزونا وريتا. دار شجار بينهم، ولكن الكثرة

غلبت الشجاعة والوفاء، وسقطت كينا من فوق الجبل لتموت ومعها سر مكان سيزر.

أما ريتا فقد تشممت المكان ووجدت الصغير، لكنها وزونا لم تستطيعا الوصول إليه؛ لأنه كان بعيدًا عن متناول أيديهما.. حاولت زونا أكثر من مرة أن تمد يدها داخل الشق لعلها تقتله أو تستطيع إخراجه لكنها فشلت، كان سيزر منكمشًا على نفسه يرتعش رعبًا وهو يرى المخالب القاتلة بارزة من يدها تحاول الوصول إليه وأن تجرحه، كانت زونا غاضبة، فها هي خطتها تسير بنجاح، غير أن هذا الشبل يأبى أن يخرج، وسيفسد عليها خطتها وتعبها. ولما فقدت الأمل في الوصول إليه وقفت تنظر إلى الشق في غضب: "لا، لا يمكن أن أخسر الآن، ليس بعد كل هذا، يجب أن يموت هذا الصغير بأي طريقة.. إن لم يكن بيدي فليكن بيد شخص آخر". والتفتت حولها تبحث عن شيء، ثم قامت بدحرجة حجر ثقيل وسدت به مكان الصغير: "هكذا إذا لم تُرِدْ أن تخرج فلْتبقَ هناك للأبد!"

كان سايري قد وصل إلى أسفل الجبل ورأى زوجته كينا قد قتلت، ففجع لفعلته، كيف لهذا أن يحدث؟ كيف يسمع كلام حيوانات الغابة ويصدقها ويتسبب بكل هذا الدمار؟ أمَّا كينا فحاولت أن تخبره بمكان الصغير، لكن كل ما استطاعت قوله كان: "سيزر.. الجبل" وماتت.

مثلت زونا وريتا الحزن وقالتا إنهما ظنتا أن كينا سرقت سيزر لتؤذيه وحاولتا منعها لكن قدمها انزلقت من فوق الجبل ووقعت. وتدخلت تونجا المجروحة قلبًا وجسدًا وسألت عن مكان وليدها، ففتحت ريتا فمها لتقول شيئًا، لكن زونا أسرعت بالرد وقالت إن كينا كانت تحمله لما وقعت من فوق الجبل. صرخت الأم المفجوعة على وفاة وليدها وأخذت تبحث عنه أسفل الجبل كالمجنونة، تسأل: أين جثته؟ أين وقع؟ لا يمكن أن يكون مات! فما كان رد اللبؤتين سوى أنهما لا تعلمان شيئًا؛ فقد حدث كل شيء بسرعة.

أما الصغير فقد حل الليل عليه وهو في الحفرة وحيد في الظلام والبرد، وكم من مرة يحاول فيها أحد الوحوش الوصول إليه للفتك به، لكنه كان في حفرة عميقة جدًّا فحمتْه. ومع طلوع الشمس بدأت الأمطار تسقط وبدأت الحفرة تمتلئ بالماء، فأخذ الصغير يصرخ ويصرخ طالبًا النجدة، كان قد بات طوال الليل دون طعام داخل الجحر البارد، وقد التهب جرح رأسه فبات ضعيفًا، وكان صوته ضعيفًا. ازداد الماء ارتفاعًا، وصارع الغرق وهو يحرك يديه ورجليه ليستطيع الطفو فوق سطح الماء للتنفس، وفجأة رفع أحدهم الحجر وظهر وجه وسمع صوتًا يقول: "ما الذي ألقى بك هنا أيها التعس؟" وامتدت يد لتنتشله من الحفرة ومن الموت.

حمل الفتى الإفريقي سيزر عاليًا ليراه ونظر إليه وقال: "يا هناك يا سعدك يا جاكي! أسد؟ وأبيض؟! هذا لا يحدث إلا في الأحلام". ثم

لفه في قطعة قماش ووضعه في حقيبته ونزل من الجبل بسرعة وركب سيارته التي كان ينتظره بها ثلاثة من الصيادين غير الشرعيين وهو يقول: "أرجوك لا تمت قبل أن أبيعك".

في اللحظة التي غادر فيها الفتى الإفريقي ومعه سيزر، كانت تونجا قد وصلت عند الشق فوق الجبل حيث كان يقف الفتى لما وجد سيزر. تشممت تونجا الجحر وهتفت: "سيزر؟!" ولما مدت يدها وجدته مملوءاً بالماء. أخذت تبكي وتخرج يدها وتنظر للماء فيها ثم تضعها ثانية في الشق وهي تصرخ باسمه: "سيزر! ولدي!" ولما شعرت أن الشق فارغ توقفت وهي تبكي ثم انفجرت بزئير مدوٍّ يخرج كل ما في صدرها من حزن ولوعة وهي تصرخ باسمه: "سيززاارر". كان زئيرها مدوياً سمعته حيوانات الغابة كلها.. سمعه سايري وزونا وريتا وسمعه الفتى الإفريقي وسيزر الذي كان قد أخرج رأسه من الحقيبة وهو ينظر إلى الجبل حيث كان وحيث تقف أمه، فتح فمه ليصرخ لكن لم يخرج منه صوت، كان ضعيفاً واهناً يرتعش من قلة الطعام ومن البرد، كل ما استطاع فعله هو أن نظر إلى أمه والسيارة تبتعد وصورة أمه تصغر وتصغر وتصغر وتتلاشى بالتدريج إلى الأبد.

☼☼☼

بعد وقت الظهيرة بقليل كان طارق قد انتهى من تدريب الجمباز وأسرع إلى غرفة تغيير الملابس يستحم ويلبس ملابسه على عجل ويخرج لوالده الذي كان ينتظره أمام باب المدرسة مع دكتور لحام

ورامي للذهاب في جولة تفقدية سريعة في البرية. كان المفترض أن والد طارق ذاهب إلى الأحراش ليدون ويلاحظ عدد أفراد الزراف في المنطقة وأنواعه تمهيداً لنقل بعض الزرافات إلى داخل المحمية.. وحين وصلوا للأحراش ظلوا فترة سائرين دون أن يجدوا أيًّا من الزراف في الطريق.. غير أن شيئًا ما غير مألوف لفت نظرهم، فباقترابهم من أحد التلال لاحظوا جثة أحد الأسود ومن حولها عدد لا بأس به من النسور آكلة الجِيَف، وبدخولهم إلى الغابة أكثر لاحظوا إحدى عائلات الأسود وقد أُصيبت إحدى الإناث إصابات بالغة بدت كما لو أن عراكًا شرسًا قد دار بينها وبين الأسد الذكر الذي بالفعل كان جالسًا وقد اكتسى جسده بعدد من الجروح بينما كانت الأنثى تبدو منعزلة عن القطيع ومعها صغيرتها.

"تبدو مصابة بشدة، يبدو أن عراكًا دار بين هذه الأسود، هذه الأنثى تنوي المغادرة قريبًا، لكنها لا تريد أن يهلك صغيرها إذا ما تركت العائلة!"

قالها الدكتور نادر وهو يصور الأحداث، فردَّ طارق الذي كان يصور هو الآخر:

"ترى ما السبب؟ وهل لهذا علاقة بجثة الأسد التي تأكلها النسور التي رأيناها في الطريق؟"

طبعًا لم يكن الدكتور نـادر أو طـارق أو رامـي أو الـدكتور لحـام ليتصور السبب وراء انكسار هذه الأسرة، ولِمَ لَمْ ترحل تونجا وتـترك العائلة وسايري الذي دمر وليـدها وفطـر فؤادهـا. فقبلـها بعـدد مـن الساعات كانت تونجا قد نزلت من فوق التل بعدما أدركت أن وليـدها لم يقع من فوق الجبل أو يهلك بل كان بأحد الشقوق، وأنه لسبب مـا خرج منه، ولا تدري إلى أين ذهب. ولما نزلت من فوق التل كانت قد عزمت أمرها على الرحيل للأبد بعيدًا عن سايري والعائلـة الـتي كـان كل شيء بها يذكرها بوليدها وفقده.

وبالطبع كان هذا الخبر أسعد خبر يمكن أن يحـدث في حيـاة زونـا التي كانت فرحتها مضاعفة ذلك اليوم، فأولاً تخلصـت مـن الوريـث الأبيض، والآن ستتخلص من أمه للأبد. غـير أن الريـاح تـأتي بمـا لا تشتهي السفن، فقد انطلقت نيللي ابنـة كينـا وراء تونجـا وهـي تبكـي وترجوهـا ألَّـا تتركهـا. اعتصـر الألم قلـب تونجـا، كيـف نسـيت صديقتها؟ أعز أصدقائها كينا التي قتلت دفاعًا عـن وليـدها المفقـود؟ ولكن كيف تبقى مع سايري بعدما فعل؟ ونظرت خلف نيللي والتقت عيناها بعيني زونا وظنت أنها لمحـت في عينيهـا لثانيـة ابتسـامة شماتـة أسرعت زونا بمداراتها متصنعة الحزن. لو تركت هـذه الصـغيرة هنـا سيكون مصيرها بين يدي زونا وريتا، أي سـيكون مصـيرها كمصـير ولدها.

لم تكن وقتها تونجا تعرف أن زونا وريتا السبب وراء مقتل كينا وفقد سيزر، لكن شيئًا ما في داخلها صرخ فيها ألَّا تتركي تلك الصغيرة معهن. "هذا وقت رد الجميل" حدثت نفسها، "لقد ماتت أمها دفاعًا عني وعن وليدي، والآن يجب أن أكون مسئولة عنها، فلأتحمل المسئولية إذن".

كان قلب سايري يتألم وهي تبتعد، ولم يكن يريدها أن ترحل، لكن بعد كل ما تسبب فيه لم يكن ليجرؤ على أن يطلب منها البقاء معه، لقد تسبب في فقد الصغير كاسرًا قلبها للأبد، كان يعلم أن رحيلها يعني تحطمه وهلاكه، ولم يكن يدري ما يفعل. ولما رأى نيللي تركض وراءها ترجوها أن تبقى تمنى من كل قلبه أن توافق.. ووافقت، سوف تبقى معهم، لن تتركه فقط من أجل ابنته نيللي.. ولسوف يبذل كل جهده لإرضاءها ونَيل سماحها.

أما زونا فقد أرادت أن تصرخ في وجهها أن ترحل، لكنها كظمت غيظها وأظهرت وجه الملائكة وهي تؤكد عليها أن بقاءها هو نعم العقل. لكن من داخلها كان قلبها يضمر لها كل الكره والغيرة، وعقلها يخطط لمخطط شيطاني جديد للخلاص منها ومن نيللي.

كل هذا حدث قبل قدوم طارق ووالده بعدة ساعات، والآن كان طارق واقفًا يصور تونجا وجروحها وسايري الذي حرص على البعد

عن تونجا وزونا وريتا وابنها جونجو، وتساءل طارق في قرارة نفسه: "ماذا حدث لهذه العائلة؟ وما السبب وراء تلك الجروح؟" لم يكن يدري أن السبب كان على بعد عدة كيلومترات منهم، وأنه على وشك أن يقابله وأن يغير حياته للأبد.

مع اقتراب موعد الغروب همُّوا بالرحيل، وأوصل أدولا والد طارق إلى مركز حماية الحياة البرية ثم انطلق ليوصل طارق إلى منزله، وفي الطريق هاتفته ابنته أن شيئًا ما طرأ على والدتها وأنه يجب أن يأتي مسرعًا. . وبالطبع لم يمانع طارق أن يذهب أدولا لبيته للاطمئنان على زوجته المريضة التي أصابتها انتكاسة ما عندما كان معهم في رحلة السفاري.

أوقف أدولا السيارة أمام منزله في قلق وقال:

"لن أتأخر يا طارق. . أرجوك لا تتحرك من السيارة، فالمنطقة ليست آمنة".

"لا تخف عليَّ . . فقط أسرع إلى زوجتك فقد تحتاج أن تذهب بها إلى المستشفى".

وأسرع أدولا إلى منزله تاركًا طارق في السيارة مع تريسي. . تأمل طارق الحي الفقير الذي يسكن فيه أدولا. . بدت البيوت بسيطة وبعضها متهالك بعض الشيء، يجلس بعض الأفراد في الشارع على

السلالم أمام منازلهم، بينما يلعب الأطفال كرة القدم، واستطاع طارق تمييز بعض الوجوه التي يبدو عليها أنها من مثيري المشاكل.

وبينما يتأمل المكان لفت نظره فتى إفريقي ضخم في العقد الثاني من عمره يخبئ شيئًا ما بين ملابسه، شيء حي، كائن ما أبيض يتحرك ويحاول هو السيطرة عليه، وفجأة أخرج هذا الشيء رأسه لثانية كانت كافية ليتعرف عليه طارق، كان حيوانًا صغيراً جداً ونادراً جداً جداً، كان أسد أبيض.

شعر طارق بالغضب والانفعال وتسارعت ضربات قلبه وتسارعت عشرات الأسئلة في عقله: "ما الذي يفعله أسد أبيض بهذا العمر في مكان كهذا مع فتى مثل هذا يبدو أقرب لفتى عصابات منه إلى مهتم بالحياة البرية؟ وإلى أين يأخذه؟ ولِمَ يخفيه؟ وما مصيره؟"

وانتبه عند وصوله لهذا السؤال: "ما مصيره؟" لا يبدو مشرقًا إذا ما ارتبط بفتى مثل هذا! أمام طارق كانت تتم تجارة غير مشروعة كثيراً ما رأى أثرها وحاربها والداه وأصدقاؤهما وحاربتها الدولة، وتأذى هو كثيراً من تدميرها للبيئة وكَره ممارسيها. لهذا عزم طارق أمره وفتح باب السيارة في عجل آمراً تريسي أن تبقى حيث هي وانطلق يتبع الفتى المريب.

كان شكل طارق في حي مثل هذا لافتًا بملامحه الشرقية وبشرته

الأفتح من بشرة معظم قاطني الحي، ناهيك عن ملابسه التي بدت باهظة الثمن، وأنه غريب عن المنطقة. دخل الفتى إلى زقاق خال من الناس شبه مظلم، وكان بانتظاره رجل زنجي ضخم يبدو من ملامحه أنه عصابة كاملة بمفرده! توقف طارق واختبأ يتسمع الحوار، وكما توقع أخرج الفتى أسدًا أبيض مريضًا من سترته حمله بطريقة مؤلمة جعلت الصغير يحاول الخلاص من قبضته، لما رآه الآخر تساءل باستهزاء: "ما هذا؟"

رد جاكي وهو يرتعش:

"هذا أسد أبيض نادر.. أتدري كم يساوي؟!"

"وهل تراني تاجر حيوانات؟ هل تستهزئ بي أيها التعس؟ ألا تعلم من أنا؟"

ومع عبارته الأخيرة أخرج مطواة وفتحها في وجه جاكي الذي قال بصوت مرتعش:

"لا.. أقسم بالله لا أسخر منك.. هذا أسد نادر، إذا بعته سيساوي ثمنه مديونياتي و...".

لم يدعه الآخر يكمل بل أمسكه بقسوة من ملابسه وقال وعينه يخرج منها نار الغضب:

" إذا بعته؟ ولِمَ أبيعه؟ ولِمَ لَمْ تبعه أنت؟ أتراني أعمل عندك؟ هذا أسد من كثرة ما نزف لونه أكثر حمرة من ملابسي هذه؟ سيموت هذا الشيء قبل أن أصل إلى منزلي، ألهذا أحضرتني؟ وأضعت وقتي الثمين من أجل هذا الهراء؟ لن أرحل من هنا إلا بعد أن آخذ نقودي أو أفقأ عينك هذه! "

ومد المطواة في وجه جاكي . . لكنه توقف والتفت الناحية الأخرى وتساءل :

" ما هذا؟ هل أحضرت أحدًا معك؟ "

قالها وهو ينظر إلى طارق الذي قرر التدخل لا لإنقاذ جاكي بل لإنقاذ الشبل الهزيل . . رد طارق محاولاً أن يبدو متماسكًا :

" لست معه . . أنا هنا لشراء هذا الشبل " .

انعقد حاجبا جاكي ورجل العصابة الذي نظر إلى جاكي نظرة جمدت الدماء في عروقه فأقسم له أنه لا علم له بهذا الفتى، فسأل الرجل طارق :

" كم ستدفع؟ "

" ليس لدي نقود كثيرة . . لكن لدي هاتفي المحمول وساعتي وسلسلتي الفضية " .

اقترب الرجل من طارق وأخذ ما معه وقال :

" وسترتك وحذائك " .

بهت طارق، لكن مع تهديد المطواة خلعهما وأعطاهما له، فالتفت إلى جاكي وابتسم ابتسامة ساخرة وقال: " هذا لا ينهي دَيْنك أيها التعس! انتظر مني زيارة لتسدد الباقي. . لكن هذا يكفي كي لا أقتلع عينك من مكانها " .

والتفت إلى طارق مبتسمًا بسخرية قبل أن يرحل ويتركه، بمجرد أن اختفى رجل العصابة جرى طارق يلتقط الأسد الصغير من الأرض، لكنه فوجئ بمطواة في وجهه، صاحبها هذه المرة كان جاكي الذي قال في خسة:

" اترك هذا الأسد " .

تركه طارق واعتدل فقال جاكي مهدداً:

" ارجع إلى الوراء، هذا الأسد ملكي، هيا ارحل، انتهت المسرحية " .

لكن طارق لم يدعه يكمل جملته فقد قفز بسرعة راكلاً المطواة من يد جاكي، ثم انطلق يأخذ الأسد وخبأه أسفل أحد صناديق القمامة الكبيرة والتفت إلى جاكي لكنه لم ينجح في إكمال التفاتته، فقد باغته جاكي وضرب رأسه بجانب الصندوق فاختل توازنه وسقط أرضًا، بينما ارتعب الأسد الصغير وأخذ يدخل أسفل الصندوق ليحشر نفسه باتجاه الحائط بعيداً عن يد جاكي التي امتدت تحاول الوصول إليه.

" تعال أيها الأحمق ! "

قالها جاكي وهو يمد يده يحاول الإمساك بسيزر ، ثم تحول صوته إلى زئير وأصابعه إلى مخالب ووجهه إلى وجه زونا وهي تحاول انتشاله من الشق للفتك به ، فانكمش أكثر على نفسه مبتعداً وصوت مخالب زونا وهي تخدش الحجر وزئيرها وهي تنادي باسمه يدويان في رأسه ، وتأوه طارق وجذب جاكي من قدمه مبعداً إياه عن الأسد الصغير . . وللمرة الثانية يُعرِّض أحدهم نفسه للخطر من أجل سيزر غير أنه هذه المرة استطاع سيزر رؤية ما يحدث من مكانه ، جاكي يضرب طارق بشدة وطارق يحاول تفادي لكماته ويكيل له لكمات هو الآخر توقعه أرضًا ، لكن هيهات ! فجاكي كرجل عصابة متمرس على الضرب . . فوقف وقد زاد غضبًا وقرر أن يقضي على طارق لا لشيء إلا لأنه أغضبه ، وتمكن من إيقاعه أرضًا ، وانقضَّ على طارق ودار عراك شديد بينهما ، لم يكن طارق ضعيفًا بأي حال خاصة مع كل الرياضة التي يمارسها ، لكن مقارنة بجاكي الفتى الزنجي الضخم كانت المقارنة غير عادلة . ووقع طارق أرضًا بينما جاكي يكيل له اللكمات والركلات في كل مكان من جسده بمنتهى الغضب ، كان مصرًّا على الإجهاز عليه لولا تدخل القدر .

" يا إلهي ! ماذا تفعل أيها المجرم؟ "

قالتها إحدى النساء وهي تطل من شرفة منزلها الخلفية على تلك الضجة التي صنعها عراك جاكي وطارق في الزقاق الخلفي، وهنا خاف جاكي أن تتعرف عليه السيدة التي تسكن في نفس منطقته فأسرع يلوذ بالفرار تاركًا طارق ملقى على الأرض يتأوه من الألم، وسيزر الذي لم يرفع عينيه عن وجه طارق الملطخ بالدماء.

حاول طارق أن يفتح عينيه، كان كل جسده يؤلمه، شعر بالدوار وأفرغ كل ما في معدته حين سمع نباحًا يعرفه جيداً، كانت تريسي. أسرعت إليه تريسي يتبعها أدولا الذي ارتعب حين وقعت عيناه على طارق. كانت الدماء تنزف من أنفه ورأسه وقد تمزقت ملابسه واتسخت، كان واضحًا أن طارق قد تعرض للسرقة وأنه سيكون في ورطة لأنه أتى به إلى هذا المكان. ساعد أدولا طارق على النهوض ولكن طارق توقف ونظر إلى صندوق القمامة الذي بأسفله سيزر وأشار للصندوق وقال بصوت مختنق:

"أسد".

طبعًا لم يفهم أدولا، لكن تريسي أخذت تنبح بجانب الصندوق وتحاول الدخول تحته، وعاد طارق إلى الصندوق بضعف بينما أدولا يحاول أن يحثه على الخروج من المكان خوفًا من عودة اللصوص.. لكن طارق نزل إلى الأرض وأدخل يده أسفل الصندوق وهو يتحدث بصوت منخفض:

"تعال، أرجوك.. لا تخف".

كان سيزر منكمشًا على نفسه يرى ما حوله خيالات، انخفض منسوب السكر في دمه من قلة الغذاء وبدأ يرتعش ويغلق عينيه وقد بدأ يصيبه الدوار بعد كل تلك الأحداث التي مر بها، لكنه فجأة انتبه لنباح تريسي وزادت ضربات قلبه، وحين مد طارق يده خاف، لكنه لما لمح وجه طارق وميز صوته عرفه، ولسبب ما أحس أن طارق ليس خطرًا، أحس أنه يريد أن يساعده، كانت يد طارق بعيدة عنه ولم يقوَ على الذهاب إليه، كان يشعر بالوهن، يريد أن يغلق عينيه ويرتاح.

"تعال، أرجوك.. لا تخف".

لم يفهم سيزر ما تعني هذه الجملة، لكنه فهم ما تحمله نبرة طارق وهو ينطقها، كانت نبرة اهتمام به وبأمره، وتحامل سيزر على نفسه، أخذ خطوة في إثر أخرى وهو يرتعش بردًا وضعفًا حتى وصل إلى يد طارق الذي أخرجه من مكانه لدهشة أدولا الذي ارتفع حاجباه من المفاجأة وأسرع يسند طارق إلى السيارة، وطارق يضم سيزر إلى صدره يحاول تدفئته وطمأنته.

أصر طارق على الذهاب إلى العيادة البيطرية التابعة لمركز حماية الحياة البرية أولاً بالرغم من إلحاح أدولا أن يوصله إلى المستشفى أولاً، لكن طارق أبى:

"سأكون بخير، لكن هذا الشبل لن يصمد بدون رعاية ساعة أخرى!"

وكان طارق مُحقًّا، فبمجرد وصولهما إلى العيادة البيطرية تسلمه الأطباء وبدءوا بإسعافه، ولما اطمئن طارق عليه طلب من أدولا إيصاله للمستشفى.

في المستشفى تبين أنه مصاب بارتجاج طفيف بالمخ جرَّاء ارتطام رأسه بصندوق القمامة، بالإضافة إلى جرح قطعي في رأسه وكسر بإحدى ضلوعه وعدد لا بأس به من الجروح والرضوض. أبلغ والد طارق الشرطة التي أتت وأخذت أقوال طارق، وقبل أن ينصرف الشرطي نظر إلى طارق في احترام وقال:

"اسمح لي أن أصافح شخصًا شجاعًا وأمينًا مثلك، ليت كل الشباب يفعل مثلك، لو حدث ذلك لأصبحت إفريقيا مكانًا أجمل".

انتشر الخبر بعدها بعدة أيام، كتبت عنه تقريبًا جميع الصحف: «الفتى الأجنبي الذي عرض حياته للخطر من أجل إنقاذ كنز من كنوز الطبيعة النادرة»، «الفتى المصري الذي أنقذ الأسد النادر» إلخ.

وعلى الرغم من استياء مدربي كرة الماء والجمباز لعدم استطاعة طارق المشاركة في البطولة القادمة لإصابته، فإنهما أكدا له أنهما فخوران به، وأن مكانه محفوظ بالفريق ينتظر عودته. كل هذا أسعد طارق كثيرًا، وما أسعده أكثر كان تفهم والديه لما فعل على الرغم من

بكاء والدته طويلاً لما رأت وجهه وإصاباته . . إلا أنها أكدت لـه أنهـا تشعر بالفخر لأن ابنها رجل بحق في تلك السن الصغيرة .

غير أنه كان قلقًا على الشبل الأبيض ، فقد كان محقًّا بشـأن حالتـه الحرجة ، كان صغيرًا على كل ما مر به من نقص غذاء وبرد وجروح . وفي اليوم التالي أصر طارق على الذهاب إلى المركز للاطمئنـان عليـه ، هناك كان الشبل نائمًا في قفصه الصغير المـبطن ببطانيـة للتدفئـة ، ولمـا اقترب طارق منه أحس كم هو جميل بعد أن اغتسـل وخـيط الجـرح في جبهته : " سيترك هذا الجرح أثرا في جبهته طوال عمره " . قالت الطبيبة ماري :

" حالته الصحية ضعيفة ، وهـو أصـغر مـن أن يأخـذ تطعيمـات للأمراض ، فأتمنى ألَّا يصـاب بـأي مـرض فمناعتـه ضـعيفة ، واللـبن الصناعي لا يعطيه المناعة التي يعطيه إياها لبن الأم " .

" وجوده هنا خطر عليه ، قـد ينتقـل إليـه عـدوى أو مـرض مـن حيوانات أخرى هنا . . أليس كذلك؟ "

" هذا ممكن " .

قالت ماري . .

كان وقتها طارق يربت على سيزر الذي كان نائمًا لكنه بدأ يتقلب ولمست إحدى يديه يد طارق فابتسم وفتح سيزر عينيه ونظر إلى طـارق

بعينين زرقاوين كلون السماء، فتحهما لحظة يرى من هذا الذي يربت عليه، ثم لما اطمأن أغلقهما وراح في سبات عميق. هنا التفت طارق إلى ماري وسألها:

"أنتم تبحثون عن أحد ليتبناه ويأخذ باله منه إلى أن يتعافى، أليس كذلك؟"

قالت: "بلى".

"إذن اعتبري الأمر منتهيًا، لا تضعي صورته في عروض التبني على الإنترنت، سأعتني به".

"هل استأذنت والديك؟"

"لا أظن أنهما سيمانعان".

"لكن الاعتناء بشبل في هذه السن أمر صعب، إنه بالضبط مثل الطفل الوليد لا بد أن تعطيه الحليب كل فترة، هل أنت مستعد أن تصحو من نومك كل عدة ساعات لإعطائه غذاءه؟"

"سأتدبر أمري".

"حسنًا يا طارق.. لولا أنك من منزل أعلم أنه سيلتزم جيدًا ويهتم بالأسد ما وثقت بك.. ينبغي الآن أن يوافق والداك ويوقعا على شهادة التبني".

حين عاد طارق إلى منزله وأخبر والديه على العشاء لم يرحبا بالفكرة على الفور، كانا يعلمان ما معنى الاهتمام بشبل وليد بهذا الحجم، كانت المسئولية كبيرة جداً، لأنهما جرباها عدة مرات من قبل:

"هل تتذكر حين تبنيت أنا صغار الشيتا؟ كنت نادراً ما أنام، ماذا عن مدرستك؟ لن تتمكن أبداً من الاعتناء به وعدم التقصير في دراستك".

قالت والدته وأيدها زوجها.

"ثم ماذا عن تمريناتك؟ ستعود إليها يوماً ما حين تصبح أفضل، أليس كذلك؟ ثم إنك إن ركزت مع دراستك وقصرت مع الشبل فقد يؤدي هذا إلى ضعفه وهلاكه".

"لا تخافا؛ سأنظم وقتي، سأعتني به ولن أهمل في دراستي.. لقد أفهمتني ماري كل شيء، أرجوكما أعطياني فرصة".

"هذا روح يا ولدي وليست لعبة، ماذا لو لم تستطع تحمل المسئولية؟"

"حينها سأعيده إلى المركز، لكني لن أعرض حياة الأسد للخطر ابداً، ليس بعد كل ما حدث".

صمتا ونظر بعضهما إلى بعض ثم قال والده :

" حسنا ، لكن على شرط . . لو شعرنا أنـك تقصـر في واجباتـك ودراستك ، أو تقصر في حق الشبل فسوف نبعده عن هنا تمامًا " .

ابتسم طارق وقال بحماس وسعادة :

" اتفقنا " .

النجاة

ربضت تونجا على الحشائش تراقب القطعان بينما أخـذت نيللـي تلهو بالعشب حولها في سعادة، من خلفها وقفت زونا تراقب المشـهد والحقد يأكل قلبها، ثم انصرفت مبتعدة بينما كان سايري يرقـد بعيـداً ينظر إلى تونجا، تونجا فقط. كان هذا حاله منذ الحادث.. منذ شهر لا يتحدث مع أحد ولا يتحرك مـع أحـد، إمـا رابضًـا وحـده أو سـائراً وحده، وإذا اقترب منه أحد فهذا من حظـه العسـر؛ فقـد كـان سـيئ المزاج، أقل شيء يثير غضبه ويدفعه للعنف المفرط. لم يكن يعبأ بـأي شـيء سـوى تونجـا، كـان يتحاشـى الوجـود بقربهـا، أو أن تلتقـي عيناهما، لكنه كان دائمًا يختلس النظرات إليها من بعيد، وكانت هـي تتجاهله تمامًا.

حتى وقت الصيد كانت اللبؤات تخرجن للصيد ويبقى هـو علـى الرغم من حاجتهن إليه لسد العجز في العدد بعد وفاة كينا. لكنه كـان

بائسًا غاضبًا يشعر بالذنب، لا يستطيع أن ينسى كيف أطاح بسيزر ليرتطم بالصخرة ويجرح، لم يستطع أن ينسى صراعه مع تونجا التي كانت تدافع عن سيزر، لا يستطيع أن ينسى أنه صدق الشائعات وتسبب في فقد ولدهما بمنتهى الحمق.

كان الخبر قد انتشر بين حيوانات الغابة وبدأت الحيوانات كلها تتحدث عن الموضوع.. تألم بعضهم مما حدث للصغير وللعائلة، بينما شمت آخرون بهم واتخذوا الخبر مادة للفكاهة والسمر.

كان الهدهد من الفريق الأول، آلمه بشدة أن يصدق سايري هذا الهراء، وذات يوم بينما هو يستريح على غصن إحدى الأشجار إذا به يلمح زونا وحدها تتحدث مع ابن آوى، وشعر بشيء كريه يتم تدبيره، كان يعلم أن هذه اللبؤة حقًّا شريرة، فوقف فوق الشجرة يتسمع لما يقولون.

وكما توقع كانت زونا تأمر ابن آوى بشيء شرير مثلها، كانت تأمره أن يقتل نيللي حين تخرج العائلة للصيد، وأنها ستتركها وحدها مخبأة في إحدى الجحور بزعم أنهم في حاجة إلى عدد كاف للصيد ولا مجال لبقاء إحدى اللبؤات مع الصغيرة، وستترك معها جونجو الذي تعلم أنه لن يحاول حماية نيللي وسيلوذ بالفرار لينجو ويترك نيللي.

ورفض ابن آوى، هو ليس قاتلاً أجيراً، إنه يقتل فقط ليحيا ويصيد للضرورة، لكنه لا يقتل بهدف القتل، ثم كيف يقتل ابنة

سايري؟ ماذا لو علم سايري؟ سيكون في ذلك هلاكه. فجأة أمسكت به بين مخالبها وقالت بوحشية:

"إما أن تقتلها أو أنهي حياة صغارك! غدًا ليلاً سنخرج للصيد وحين أعود أريد أن أجدها جثة هامدة".

وتركته وانصرفت.

وطار الهدهد مبتعدًا.. كان قد عقد أمره، لن يترك هذه المذبحة تكتمل.

حين وصلت زونا إلى العائلة تصنعت المرض وأنها تشعر بالألم في إحدى أقدامها، وأكدت أنها رأت قطعانًا من الماشية في الجهة المقابلة للنهر، وأنه يمكنهم أن يصيدوا غدًا ليلاً، واتفقن جميعًا.. لكنها طلبت من سايري أن يصاحبهن لأن إحدى أقدامها تؤلمها ولن تستطيع أن تصيد جيدًا؛ لذلك فهن يحتجن إلى كل المساعدة الممكنة للفوز بصيد جيد، ولدهشتها وافق سايري.

وفي اليوم المحدد سار الجميع قبل غروب الشمس إلى الناحية الأخرى من النهر، ووجدت تونجا مكانًا آمنًا لتترك فيه نيللي وجونجو الذي أوصته أن يأخذ باله منها جيدًا. وتركوا الصغيرين وانطلقوا إلى حيث قطعان الماشية، وحين وصلوا بدءوا يتوزعون على شكل كماشة حول القطيع يتربصون بالماشية، ينتقون القاصية منها أو المريضة أو الضعيفة، وأخذ كل واحد منهم وضع الهجوم.. وبدأ الهجوم،

وتفرق القطيع بينما اللبؤات تحاولن الإيقاع بأي فرد منه، حتى تمكنت زونا من الإمساك بصغير إحدى الأبقار الوحشية وساعدتها ريتا، وفجأة وجدتا هجومًا كاسحًا من أم الصغير تطيح بهما بقرنيها الضخمين وتنقذه منهما، وصرخت زونا تطلب العون من سايري وتونجا، لكن أحدًا لم يأت. . وبعد أن هدأ الأمر اكتشفت ريتا وزونا أنهما وحدهما، وشعرت زونا بالقلق فأسرعتا بالعودة حيث تركتا الصغيرين.

وكان بانتظارهما سايري وتونجا بينما كانت نيللي وجونجو بخير داخل الجحر كما هما. لكن شيئًا ما في عيني سايري لم يرح زونا وسألت بغضب:

"لقد تركتمانا وحدنا، كدنا نقتل!"

قال سايري وهو يقترب منها:

"وأنت كدت تقتلين نيللي!"

"لا".

"بلى، أيتها الشيطانة، لقد سلطت ابن آوى لقتلها بينما نحن غائبون. . لقد أمسكته واعترف بكل شيء".

تراجعت زونا وصاحت:

"كذب، هذا كذب!"

ولم يحتمل سايري أكثر من ذلك . . كان غاضبًا منذ حادثة سيزر، وكأنما وجد ضالته وأسرع ينقض على زونا كالإعصار الكاسح يفرغ كل الغضب المكبوت داخله، لم تتمكن زونا من الهرب، فوجئت بالهجوم كما فوجئت الأخريات، وبات واضحًا أنها بأي حال لن تحيا لترى يومًا آخر، وكانت زونا تستغيث بريتا التي تجمدت هلعًا، ترى هل علم سايري أنها اشتركت مع زونا أيضًا في الشائعة الخاصة بسيزر؟

" كفى، ابتعد عنها، اهربي! "

صاحت تونجا وهي تحاول إنقاذ زونا من الموت، وجرت زونا وجسدها ينزف، ركضت بسرعة رهيبة، وحاولت تونجا إيقاف سايري عن اللحاق بها فوقفت أمامه:

" هذا يكفي، هل تنوي قتل العائلة كلها؟! "

بهت بالسؤال وبرقت عيناه وارتجفت ريتا رعبًا . . كان واضحًا أن الدور التالي من نصيب تونجا، لكن لدهشتها وذهولها لم يقترب سايري من تونجا التي كانت تنظر إليه في تحدٍّ سافر وغضب لا حد له. خيل لتونجا أنها لمحت في عينيه انكسارًا وألمًا قبل أن يشيح بوجهه عنها ويبتعد وفي داخله تمتم بألم:

" لا، لا أريد قتل العائلة كلها، يكفي ما فعلت بسيزر " .

تابعته تونجا بعينيها يبتعد، إنه يتألم؟! أما ريتا فقد هدأت دقات

قلبها مع ابتعاد سايري، يبدو أنه لا يعلم شيئًا عن اشتراكها في خطة الخلاص من سيزر، وهذا يعني أنها في أمان هي وشبلها.

اختفت زونا، شعرت تونجا بالشفقة عليها من هجوم سايري، لكنها شعرت بالدهشة: لم قد تريد زونا أن تقتل نيللي؟ هل كان ابن آوى يكذب؟ أم أن الكره أوصلها لهذا؟ وهل كان لها يد فيما حدث لسيزر؟ "سيزر! كيف أنت يا ولدي؟!" قالتها وقلبها يؤلمها وهي تتذكر وجهه الجميل.

إلى حد ما شعرت أن طرد زونا خير، لكن شيئًا ما داخلها كان يحدثها أن زونا لن تتركهم في سلام، وأن ارتياحها سيكون مؤقتًا لحين الجولة القادمة.

☼☼☼

في اليوم المحدد ذهب طارق لتسلم سيزر من مركز حماية الحياة البرية. نفعته الإجازة المرضية التي أخذها من المدرسة للراحة بسبب إصاباته في أن يصحو ليلاً وينام نهارًا مع سيزر الذي أسماه طارق: "جميل"، "سأسميك جميل؛ لأنك أجمل أسد رأيته في حياتي". كذلك قال طارق لسيزر الذي أصبح اسمه جميل.

في أول ثلاثة أشهر كان الأمر شاقًّا بالنسبة لطارق أن يصحو ويجهز زجاجة الحليب ويعطيها لسيزر ثم ينام ثانية، خاصة حين بدأ يعود إلى المدرسة، وأتعبه بشدة الاستيقاظ ليلاً أكثر من مرة. لكن

والديه أحيانا كانا يساعدانه واحترما فيه إصراره على تحمل المسئولية وعدم طلبه للمساعدة.

أحب طارق سيزر بشدة، كان يشعر أنه ضعيف وأنه صغير يفتقد حنان أمه ودفئها، فكان يحاول أن يعوضه حنان ودفء العائلة بأن يحتضنه ويكلمه وهو يعطيه الحليب بالزجاجة، وكان أحيانًا يسأله:

"ترى أين عائلتك؟ ومن أين أنت؟ كيف وصلت إلى هنا؟"

وكثيراً ما شعر طارق أن سيزر يعي ما يقول وينظر إليه نظرة فهم وبراءة.

ولما بدأ فصل الشتاء قرر طارق أن يجعل سيزر ينام معه في حجرته، فكان ينام بجانب مكتبه على وسادة كبيرة لكنه كثيراً ما كان يقفز بجانب طارق في سريره لينام بجانبه.

ملأ سيزر حياة طارق حبًّا وسعادة، وشعر طارق لأول مرة في حياته أن له هدفًا على الرغم من أنه كان متفوقًا في دراسته وتمريناته – كرة الماء والجمباز ـ إلا أن سيزر جعله يشعر أن وجوده في الحياة له أهمية، وأنه يمكنه أن يصنع فارقًا في حياة شخص أو كائن ما. كان طارق يعطي سيزر الدواء في موعده ويطعمه جيداً ويلعب معه، ولأنه قطع وعداً لوالديه فقد كان حريصًا على الحصول على أعلى الدرجات في امتحاناته، في نفس الوقت كان يحضر تدريبات كرة الماء والجمباز

دون تقصير، وكثيراً ما كان يغفو أثناء عمله الواجب أو أثناء العشاء أو أثناء إعطاء سيزر زجاجة الحليب، لكنه كان يفيق بسرعة ويبتسم لكل من هم حوله وينظر لوالديه نظرة تقول إن كل شيء على ما يرام.

ثم بدأ طارق يخلط له اللحم باللبن وينمي فيه قدراته القتالية وعضلاته باللعب معه هو ورامي. ولما كان رامي مولعًا بكرة القدم فقد حاول أن يعلمه كيف يلعب بالكرة، فمثلا كان أحياناً يضع أمامه الكرة ويحاول أن يجعله يضربها بقدمه، لكن سيزر كان يتركه دائماً ويجري إلى طارق صديقه الذي يحبه كثيراً.

عاش طارق أسعد الأوقات مع سيزر، لا يأكل غداءه تقريبًا إلا بصحبته.. وبعد أن يفرغ يقوم فيجريا معا ويلعبا فوق الحشائش الخضراء.. وكان سيزر يحب أكل وسائد سرير طارق، فكان كثيراً ما يفاجأ طارق بوسادته وقد ملأت الحجرة ريشًا وقطنًا، وكان أكثر ما يحبه سيزر هو اللعب مع كولوباس أو بمعنى آخر اللعب بكولوباس، فكان يحب أن يخيفه وكثيراً ما حاول كولوباس الاحتماء برامي الذي كلما وقف في وجه سيزر يخاف ويركض هو الآخر وسط ضحكات طارق.

يومًا بعد يوم كان سيزر يكبر، ويومًا بعد يوم كان يزداد تعلقًا بطارق، وفي الليل ينام الكل، ويبيت سيزر في قفص كبير خارج

المنزل، وتحت ضوء النجوم كان طارق كثيراً ما يتسحب ليرافق صديقه الذي يجلس شبه نائم في قفصه. كان طارق يجلس معه في الليالي الصافية في حقيبة نومه يراقب النجوم ويتحدث إليه:

"شعرت أنك تشعر بالملل فجئت أسليك"

وكان الحديث يتطرق معظم الوقت الى سيزر وكيف وصل به الحال إلى هنا، "هل تفتقد أهلك؟" تسائل طارق يوماً لكن جاوبه صمت سيزر، "ترى كيف ابتعدت عنهم ووصلت للحي الفقير؟ هل تركتك أمك؟ أم اختطفك منها اللصوص؟"

ولما كان النوم يغلب طارق كانت دائما توقظه أشعة الشمس في الصباح وحركة سيزر، وكان وجه سيزر هو أول ما يلاقيه طارق، فيملأ هذا يومه سعادة واشراق.

وحين بلغ سيزر عامه الأول كان طارق في قمة سعادته؛ فقد كان سيزر في منتهى الجمال والصحة، أبيض اللون ذو عينين زرقاوين، وفي جبهته كان أثر الجرح الذي تسبب فيه والده، كان الجرح يأخذ شكل النجمة بين عينيه مما جعله أكثر تميزاً.

وفي يوم ما أخذ طارق سيزر إلى مركز حماية الحياة البرية لإجراء متابعة له، وجاءت الطبيبة ماري تكلمه ومعها والدة طارق.

قالت ماري :

" لقد أجرينا عدة فحوصات على جميل والنتيجة ليست جيدة، لديه انحراف مولود به في عموده الفقري، هذا عيب منتشر في ذلك النوع من الأسود، أقصد الأسود البيضاء، وهو غالبًا ما يتسبب في الوفاة بسن صغيرة " .

شعر طارق أن ماري عبارة عن قاذفة صواريخ وأنه هدفها، كان كلامها كالصواعق نزل على طارق فزلزله. التفت إلى والدته التي بدت حزينة يسألها بمزيج من القلق والارتباك :

" أمي، هل هذا صحيح؟ أليس هناك طريقة لإصلاح ذلك العيب؟ عملية جراحية مثلاً؟ "

قالت والدته :

" هناك عملية جراحية لكنها خطيرة، هذا بجانب تكاليفها الباهظة، ولا أظن المركز يمتلك هذا المال لإجراء جراحة غير مضمونة، هناك حالات أكثر حرجا " .

" وما الذي يعنيه هذا؟ هل سيموت جميل إذن؟ "

" ليس الآن على أية حال، المضاعفات تظهر كلما كبر، أنا آسفة يا طارق " .

قالتها ماري وانصرفت لتتابع أعمالها بينما بقيت والدته معه .

بدا الأسى على وجهه، لا يمكن أن تكون هذه النهاية، ثم كيف تكلمه بهذه الطريقة؟ أليس هناك أي تمهيد؟ التفت إلى أمه يسألها:

"أمي، المشكلة الأساسية هي تكاليف الجراحة؟ حياة الأسد مهددة في كلتا الحالتين، أليس كذلك؟"

"نعم".

"إذن فأنا سأتصرف، سأقوم بجمع المال اللازم وسأنقذ هذا الأسد مرة أخرى".

قالها وهو يسرع الخطى للرحيل فسألته:

"كيف؟"

"سترين".

أسرع طارق يتصل برامي وبعض أصدقائه وطلب منهم الحضور، وحين وصلوا جميعًا كان طارق قد أعد العدة لحملة "جمع التبرعات لإنقاذ الأسد النادر جميل". بدأ رامي يلتقط لطارق صوراً وهو يحمل سيزر، ثم التقط طارق صوراً لطيفة لسيزر، وبدءوا بإنزال الدعوة على الإنترنت وطباعة الصور وإلصاقها في الشوارع وداخل المقاهي وفي المدرسة، كما أرسل طارق دعوات للجرائد التي كتبت عن موضوعهما من قبل وقامت بإجراء حوارا مع طارق بعد الحادث

باعتباره بطلاً قوميًّا قام بإنقاذ أحد أهم الكائنات النادرة بجنوب إفريقيا.

وبعد عدة أيام بدأت التبرعات تنهال على مركز حماية الحياة البرية للمساعدة في إجراء الجراحة للأسد النادر، وفاقت التبرعات كل التوقعات، وبعث طارق عبر الإنترنت ووسائل الإعلام يشكر كل من ساهم في هذ الحملة سواء بالمال أو المجهود، وبهذا لم يتبق سوى إجراء الجراحة الفارقة.

بقدر ما كان طارق سعيداً بجمع المال اللازم للجراحة، كان قلقًا، يكاد يموت رعبًا كلما فكر في الجراحة ونتيجتها التي قد لا تكون سعيدة. لكن نظرة أخرى في عيني سيزر ورؤيته للأخير وهو يلعب بكرته المطاطية في الحجرة دون أي أعباء أو حزن كانت تدخل السعادة على قلبه وبطريقة ما تعطه أملاً.

وتحدد موعد العملية وكان يوافق موعد المباراة النهائية لكرة الماء في بطولة المدارس بجنوب إفريقيا والتي وصل فيها فريق طارق إلى النهائي. وكان على طارق أن يقرر بين أن يبقى بجانب سيزر خلال العملية وبين أن يشارك في المباراة النهائية ليساعد فريقه على الفوز بالبطولة. كان الاختيار صعبًا بين ما يمليه عليه عقله من التزامه بواجبه تجاه فريقه، وما يمليه عليه قلبه أن يلازم صديقه الأسد خلال إجراء الجراحة شديدة التعقيد والتي إما أن تؤدي إلى إصلاح حياته أو وفاته.

ولما شعرت والدته بحيرته جلست تتحدث معه فقالت :

" لا تخشَ شيئًا على جميل ، فأنا معه وسأبذل كل جهدي لتنجح العملية ، لكنك يجب ألا تخذل فريقك ومدربك ؛ فوجودك هنا لن يؤثر على سير العملية ، أما وجودك مع فريقك فحتمًا سيؤثر على النتيجة " .

" لكني لن أستطيع التركيز خلال المباراة أبدًا . . سيظل بالي مشغولاً به ، أمي ماذا لو . . . " .

وصمت ، لم يستطع أن ينطقها ، كان يخشى عليه ألَّا تنجح العملية ويلقى حتفه . . ساعتها سيشعر بالذنب أنه لم يكن بجانبه .

" طارق ، انظر إليَّ " .

قالتها والدته بحزم وهي تنظر في عينيه .

" لو كان هذا الأسد يتكلم لقال لك : اذهب فقم بواجبك ، لو كان مصير هذه العملية أن تفشل ستفشل ووجودك حتمًا لن يؤثر على نتيجتها ، لكنه سيؤثر على نتيجة المباراة النهائية والبطولة التي بذلت فيها أنت وفريقك مجهودًا كبيرًا لتصلوا إلى حيث أنتم " .

قالتها ووقفت لتغادر الحجرة ثم استدارت وقالت له :

" إذا كنت تريد أن تساعد جميل حقًّا فادعُ له ، لأنه ليس بيد أحد أن ينقذه سوى الله ؛ فلتسأله ذلك " .

وغادرت الحجرة تاركة طارق في دوامة من المشاعر والأفكار.

وفي اليوم الموعود لم ينم طارق ليلتها إلا قليلاً، واستيقظ مبكرا جداً ليقضي أطول فترة من الوقت مع سيزر قبل العملية، ثم لبس ملابسه وجاءت والدته لتأخذ سيزر معها إلى المستشفى البيطري التابع لمركز حماية الحياة البرية.

انطلقت الأم بالسيارة التي رقد بها سيزر مستسلمًا، وانطلق والد طارق بسيارته إلى حيث المباراة ومعه شمس وطارق الذي أخذ يتتبع سيارة والدته بعينيه حتى اختفت في منعطف الطريق. كان من المفترض أن يركز على المباراة، وكان بالفعل يحاول لكن قلقه على سيزر كان يشتت تفكيره.

في المستشفى بدأت الطبيبة راجية وفريقها في تحضير سيزر للجراحة، أعطته الحقنة المخدرة وبدأ هو يغفو فحملوه فوق طاولة العمليات واستعد الفريق لبدء الجراحة.

في الوقت ذاته كانت المباراة قد بدأت وبذل كل فريق أقصى طاقته ليسجل في مرمى الفريق الآخر، ثم انتهى الشوط الأول بفارق نقطتين لصالح الفريق الآخر. أشار طارق لوالده أن يطمئنه فأشار والده له أن كل شيء على ما يرام ولم تنته العملية بعد. "لقد طالت العملية" تساءل طارق، "لعله خير". وبدأ الشوط الثاني.. بذل جهداً خارقا

للتركيز على المباراة، وبالفعل تقلص الفارق بين الفريقين إلى نقطة ثم تعادلا وأوشكت المباراة على الانتهاء، وفجأة ارتكب أحد اللاعبين بالفريق الآخر خطأ فاحتسب الحكم لفريق طارق رمية جزاء قرر المدرب أن يقوم بها طارق.

"لا ليس أنا"، قال طارق لنفسه.. كان آخر من يصلح لرمية جزاء في الفريق؛ لأن تفكيره مشتت تمامًا، وأشار له المدرب إشارة معناها (ركز) فوقف طارق أمام المرمى وصب كل تركيزه على الكرة واستعد ليضربها مع صفارة الحكم، ورنت عبارة والدته في عقله وهي تقول له: "لو كان مصير هذه العملية أن تفشل فستفشل، ووجودك حتمًا لن يؤثر على نتيجتها، لكنه سيؤثر على نتيجة المباراة النهائية والبطولة التي بذلت فيها أنت وفريقك مجهودًا كبيرًا لتصلوا إلى حيث أنتم". تمتم قائلاً: "هيا يا جميل، سأجعل فريقي يكسب فلا تخسر أنت وليكن اليوم يوم الفوز الكبير"، وصفر الحكم وضرب طارق الكرة لتدخل المرمى ويعلن الحكم انتهاء المباراة وفوز فريق طارق بالبطولة.

وانطلق أصدقاء طارق يحملونه على أعناقهم ويحتفلون، كان سعيدًا جدًّا، ولما حانت منه التفاتة إلى أخته وجدها تضحك وهي تشير له بعلامة النصر، تلك العلامة التي اتفقا معًا على أنها تعني أن العملية

قد نجحت، فصرخ طارق فرحًا وظفرًا وأسرع للذهاب للاطمئنان على جميل.

☼☼☼

بعد العملية بعدة أشهر تلقى طارق دعوة لحضور احتفال على شرفه من إحدى القبائل، لم يكن هذا بالأمر الغريب فقد أُقيمت عدة احتفالات على شرفه من قِبَل عدة جمعيات خيرية مهتمة بالحيوان ومن قبل آخرين، لكن هذه الدعوة كانت غريبة، كانت من إحدى القبائل التي تقطن غابات جنوب إفريقيا، قبيلة معروف عنها أنها تقدس الأسود البيضاء وتعنى بها. كانت الدعوة موجهة لطارق ليس من زعيم القبيلة بل من ساحرتها.

لم يكن طارق يريد الذهاب، لكن فضوله دفعه للموافقة، فكيف ستحتفل به ساحرة القبيلة؟ كما أراد أن يعرف لِمَ تقدِّس تلك القبيلة الأسود البيضاء وتحتفي بمن ينقذها؟ لكن أكثرَ سؤال كان يريد أن يعرف إجابته هو: لِمَ تذكروا الآن الاحتفال به بعد مرور أكثر من عام على إنقاذه سيزر؟

كل تلك الأسئلة أثارت فضوله أكثر لرؤية تلك القبيلة وأفرادها وساحرتها.

وفي اليوم المحدد لبَّى طارق الدعوة ومعه والداه ورامي، بينما

رفضت شمس الحضور واكتفت برميه بنظرة مليئة بالاشمئزاز لما أخبرها، وتركته وانصرفت دون رد. كانت القبيلة تستوطن طرف الغابة الشرقي، البيوت عبارة عن أكواخ مبنية بمزيج من الطوب اللبن والخوص والحشائش كغيرها من البيوت الإفريقية البسيطة، وأهلها كغيرهم من أهل القبائل يلبسون ملابس مزيجًا من الأقمشة والحبال بجانب الحلي المصنوع من أي شيء تقع أيديهم عليه.

أحضر طارق معه أكياسًا من الحلوى وزعها على أطفال القبيلة الذين كانوا في غاية السعادة، وسلم عليه أهل القبيلة وأخيرًا خرجت الساحرة لاستقباله. بمجرد أن وقعت عيناه عليها عرف أنها الساحرة.. لم يكن الامر بحاجة إلى أي ذكاء، كانت متميزة في ملابسها ونظرتها و.. وشعرها وحليها وريشها (نعم، ريشها) فقد كانت تلبس على ظهرها شيئًا يشبه الجناح، مكون من ريش كثير مصبوغ بألوان عديدة.

لم تسلم عليه، أومأت برأسها إليه وقالت بعض الكلمات ترجمها أحد فتيان القبيلة لطارق، كانت ترحب به وبعائلته. أمضوا الوقت في التعرف على أفراد القبيلة وعاداتها والفتى يترجم لطارق ما يقول أهالي القبيلة. عرف طارق لماذا يقدس أهالي القبيلة الأسود البيضاء، فوفقًا لرواية الساحرة كانت جدتها تسير يومًا في الغابة ليلاً، وفجأة هبط من السماء ضوء ساطع لامس الأرض بانفجار رهيب، وسط النار والنور وقف أسد أبيض مهيب ينظر إليها ثم سار داخل الغابة

واختفى، ومنذ ذلك اليوم والقبيلة تؤمن أن الأسود البيضاء قادمة من السماء؛ ولهذا فهي ليست كغيرها من حيوانات الغابة.

"ولكن حادثة الأسد مر عليها أكثر من عام، فلِمَ تذكرتم الآن الاحتفال بي؟"

رد الفتى:

"لأن الساحرة كان عليها أن تستأذن أولي الأمر قبل أن تقوم بتنصيبك".

عقد طارق حاجبيه في قلق وتساءل:

"تنصيبي؟"

رد الفتى بحماس:

"بالتأكيد، فاحتفالنا بك هو تنصيبك زعيمًا شرفيًّا للقبيلة".

صدم طارق بجوابه وظل صامتًا، لحظتها بدأ أفراد القبيلة بإشعال النار، وبدءوا يشوون الطعام بجانب بركة طين كبيرة، ثم خرجت الساحرة من كوخها تحمل جرة وطلبت من طارق الاقتراب وخلع قميصه ليصير صدره عاريًا، ودست الجرة في البركة وملأتها من الطين ثم غمست فيها يدها وبدأت ترسم على طارق! ترسم على وجهه وصدره وظهره وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة وترسم علامات ورموزًا غريبة.

" ما الذي تقوله؟ "

سأل رامي الفتى المترجم فقال :

" لا أفهم معظم ما تقول، الطقوس هذه المرة مختلفة بعض الشيء عن المعتاد، لكن بعض الكلمات مفهومة : "ترشيح" ، "اختبار" ، لا أدري! بعض الكلمات غير واضحة لي" .

تعجب والدا طارق مما يحدث بينما لم يشعر رامي بالارتياح، ثم قال الفتى المترجم إن الساحرة الآن تطلب السماح لطارق أن يكون جزءاً من القبيلة وزعيمًا شرفيًّا لها بعد أن أثبت إخلاصه للأسد الأبيض وحبه له. والآن بعد أن انتهت من وشمه ستقوم بانتظار الموافقة. صمتت الساحرة قليلاً ثم قامت برش الماء على طارق وهنا قال الفتى :

" لقد انتهت المراسم وطارق الآن زعيم شرفي للقبيلة بمباركة الساحرة" .

فجأة بدأ افراد القبيلة يشيرون إلى نقطة ما، التفت الكل، طارق، ووالداه، ورامي، وزعيم القبيلة ـ الذي كان وجهه متغيراً منذ بدأت المراسم ـ والساحرة التي ضاقت عيناها لما رأت ما يشير إليه الكل. ففوق إحدى التلال غير البعيدة وقف رجل إفريقي طويل جدًّا بملابس مميزة وغريبة، كان كل ما فيه يوحي بالرهبة، وقد وقف أمام قرص الشمس وتموجت ظلاله أمامه طويلة كشبح كبير وبجانبه تموج ظل أسد

كبير شديد الضخامة والشراسة معًا . أما الساحرة فقد كانت ترمقه بنظرة هي مزيج من القلق والخوف وشيء من الحذر والرجاء، تسارعت أنفاسها ثم هدأت لما استدار الرجل بسرعة غاضبة وغادر وتبعه الأسد .

سَرتْ همهمة بين أفراد القبيلة فرفعت الساحرة يديها فصمتوا ثم أعلنت انتهاء المراسم وبدأ الاحتفال ففرح الناس وبدءوا قرع الطبول، لكن الساحرة لم تبقَ معهم . ناول الفتى طارق جرة بها مياه نظيفة وقطعة من القماش ليمسح الطين عن وجهه وجسده . سأل طارق الفتى عن الرجل الذي كان واقفًا فوق التل فقال :

" إنه نوجورو الساحر، ستجده في كل مكان في إفريقيا، إنه قوي جدًّا " .

" ولِمَ كان يبدو على الساحرة القلق لما رأته؟ "

" لا أدري، ليس لنا أن نطلع إلا على ما تبوح به الساحرة، وما تبوح به قليل، في إفريقيا الحقيقة لا يظهر منها على السطح إلا قشورها، السحرة في إفريقيا يعرفون الكثير، نوجورو يعرف الكثير عن كل شيء، إنه يجوب إفريقيا كلها طوال الوقت بصحبة صديقه الأسد شوجا، إنه أسد رهيب يقال إنه أقوى من عشرة أفيال " .

ثم استأذن لما ناداه أحدهم تاركًا طارق سارحًا في أفكاره .

استمر الاحتفال إلى ما بعد غروب الشمس بساعات، استمتع

طارق ووالداه ورامي بالاحتفال والرقصات الإفريقية الجميلة التي حكت تاريخ القبيلة، وفي النهاية رحلوا جميعًا محملين بالهدايا التذكارية الجميلة.

بعد تلك الليلة بيومين عثر أهل القبيلة على الساحرة مقتولة في كوخها!

لايجر

الحلـــم والتكليـــف

جلس طارق ينهي بعضًا من مذاكرته بينما أخذ سيزر يقطع كرة أعطاها له طارق، عندما دخل والده وطلب منه أن يتحدث إليه قليلاً. جلسا على السرير وقال الأب:

"طارق، أنت تعلم منذ أول يوم رأيت فيه جميل أنه لا بد وأن يأتي اليوم الذي يعود فيه إلى الغابة؟"

قفز قلب طارق بين ضلوعه، لقد كان يعلم ما يريده والده وكان دائمًا يخشى مجيء ذلك اليوم، لم يرد طارق، فأكمل الأب:

"منظمة حماية الأسود البيضاء تريده أن يعود إلى الغابة ليعيش حياته الطبيعية".

أطرق طارق برأسه فأكمل الأب:

"سوف يُضَم إلى مجموعة من الأسود البرية وسيتعلم الصيد ويعيش حياة الغابة".

ثم صمت الأب فقد كان يعرف أن جميل أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياة طارق.

صمت طارق قليلاً، كان ينظر إلى الأرض، واحترم أباه صمته، ثم هز طارق رأسه وسأل بصوت مخنوق:

"لقد كنت أعلم أن هذه اللحظة آتية لا ريب".

وصمت برهة يكتم دمعة كادت تفر من عينه وقال:

"إن فراقه صعب، لكن الحمد لله أنه سيعود إلى الغابة ويعيش في حرية، لقد خشيت أكثر ما خشيت أن ينتهي به الأمر محبوسًا في قفص في حديقة حيوان، لكن الآن أعلم أنه سيكون سعيدًا بل أسعد حالاً من بقائه في هذا المنزل الذي يحد من حريته، ولا يمكن أن أعترض على عيشه في الغابة وعودة حريته له".

ثم ابتسم وانسابت دمعة على خده وقال:

"سيكون فراقه صعبًا، لكن أكيد لا يمكن أن أفكر في تربية أسد بالبيت، أليس كذلك؟"

ابتسم الأب وزفر زفرة راحة وقال:

"سيجازيك الله خيرًا على كل ما فعلته لهذا الشبل".

وقام ليغادر الحجرة فسأله طارق:

" متى سيرحل؟ "

توقف الأب واستدار ونظر لطارق نظرة عطوفًا وقال :

" خلال أسبوع " .

وغادر الحجرة .

نظر طارق لسيزر الذي كان لا يـزال يقطـع بأسـنانه الكـرة المطاطيـة ، وبدأت الدموع تسقط من عينيه ، ثم نزل على ركبتيـه واحتضـنه وهـو يبكي ويقول :

" سأفتقدك بشدة ، لن أنساك أبدًا يا جميل . أتمنى أن تكبر وتعيش حياة سعيدة في الغابة " .

حاول طارق أن يقضي معظم الأسبوع مع سيزر ، وقبـل اليـوم الـذي تحدد لرحيله عاد من المدرسة ودخل حجرة سيزر في الحديقة ، كان قـد صنعها خصيصًا له من الخشب وغطاها بسقف زجاجي يدخل الشمس ويحميه من أمطار إفريقيا الغزيرة ، كان سيزر رابضًا وسط القش وقـام بسرعة لما رآه واندفع يقف على قدميه رافعًا يديه يسندهما على طـارق يريد اللعب معه . احتضنه طارق وهو يقول :

" سأفتقدك كثيرًا ، أنا أحبك جدًّا يا صديقي " .

ثم أحضر له الطعام فأخذ يأكل وطارق ينظـر إليـه ويربـت علـى ظهره مستندًا إلى القش وراءه .

" إنني أشعر أحيانًا أنك تفهم ما أقول، غدًا سيأتي أناس يأخذونك، سيعيدونك إلى الغابة، لا أعلم إذا كنت سأراك ثانية أم لا، لكن ما الفارق؟ فلو رأيتني لن تتذكرني! "

ثم زفر بشدة وأراح رأسه للخلف واستدار سيزر يكمل طعامه، كان القش مريحًا والجو هادئًا وطارق متعبًا، فاستسلم جسده لنوم عميق، ولما فرغ سيزر من طعامه جلس بجانب طارق ومدد رأسه على رجليه ونام بدوره.

تقلب طارق بعد فترة وفتح عينيه فلم يجد سيزر بجانبه، ووجد باب الحجرة مفتوحا قليلاً، فانتفض من نومه قائمًا بسرعة راكضًا نحو باب الحجرة.

حين فتح الباب وقف متسمرًا لا يفهم ما يحدث!

فأمامه لم يكن هناك حديقة أو حيوانات بل لم يكن منزله ولا الحي بأكمله موجودًا!

بتعبير أدق، لم يكن هناك شيء.. فراغ فقط، فراغ أبيض باهر للعين، حتى لما التفت وراءه وجد أن الحجرة اختفت، لم يكن هناك شيء.. فقط هو والفراغ الأبيض.

من بعيد أحس بشيء يتحرك فسارع الخطا نحوه.

لكنه لما رآه تجمد خوفًا ورعبًا، أمامه وقف صاحب العينين الزرقاوين والندبة بينهما ينظر إليه.

لكنه لم يكن جميل كان أسدًا بالغًا مكتمل النمو شديد الضخامة.

تسمر طارق في مكانه.. لم يكن هناك مكان يختبئ به.

لما فتح الأسد فمه ظن طارق أنه سيسمع زئيره، لكنه سمع صوتًا يكلمه، صوت الأسد:

"طارق!"

رد طارق بصوت مختنق:

"جميل؟! أهذا أنت؟"

"سيزر.. هذا هو اسمي الحقيقي، أما انت فتسميني جميل!"

واقترب حتى صار بجانبه ثم قال: "لا تخف مني يا صديقي، تعال معي!"

مشى سيزر يتبعه طارق ليجد أبوابًا كثيرة تمتد على مرمى بصره، توقف الأسد أمام أحد الأبواب ونظر لطارق وقال:

"هذه أبواب إفريقيا!"

أمام أحد الأبواب وقف رجل يضرب الباب بالفأس فيمزقه إربًا

ويعبره وهو ينادي رجالاً آخرين خلفه يحملون الفئوس فيتبعونه بسرعة . . وأمام باب آخر أخذ رجل يضرب الباب بقذيفة مدفع فيدمره تدميراً ويعبر بالمدفع وجنوده وعرباته المدرعة . . وآخر يفتح بابًا بإطلاق وابل من الرصاص من مدفع رشاش عليه ويدخل هو وعصابته المدججون بالسلاح . . وآخر ينشر الباب بمنشار كهربائي ويدعو من يقفون وراءه أن يعبروا وراءه بآلات حفر عملاقة . . وآخر يحمل بندقية ويركل الباب بقدمه ويدخل ومن معه من الصيادين غير الشرعيين . . وآخر يحرق الباب ويعبر مع أصحابه بعصي من نار . . . وغيرها من أشكال الانتهاك والتدمير .

وقف طارق مبهوتًا لا يكاد يصدق ما يحدث ولا يدري معنى ما رأى ، لكن صوت سيزر بيَّن له معنى ما رآه قائلاً :

" كل هذه أبواب إفريقيا ، بيتي وبيت أجدادي ، كل إنسان دخل إفريقيا بطريقته " .

سكت صوت سيزر فنظر طارق ناحيته لكنه كان قد اختفى ، فعاد لينظر نحو الأبواب ، كانت كلها قد اختفت إلا بابًا واحدًا أمامه .

لا شيء حوله غير الباب . . تلفت حوله في قلق وهو ينادي سيزر ، لكن جاوبه الصمت ، لم يكن هناك شيء ، لا أبواب ولا رجال ولا أي شيء إلا الباب الذي أمامه .

لم يدرِ ما يفعل لكنه أحس شيئًا ما وراء الباب. إنه يسمع أصواتا وراء الباب ويشعر بحركة.

بعد تردد مد يده ليفتح الباب، لكن يده توقفت قبل أن تلمس المقبض، وتذكر كلمات سيزر تعليقًا على الرجال: "كل إنسان دخل إفريقيا بطريقته" . . أنزل يده ونظر إلى الباب و . .

وطرق الباب.

فجأة وبسرعة كبيرة أخذ الباب يكبر ويكبر ويتضاعف في حجمه، فرجع طارق إلى الوراء في حذر.

ثم بدأ الباب ينفتح ببطء على مصراعيه، ومن وراء الفتحة الرفيعة التي أخذت تتسع أطل قرص الشمس الساطع على أرض إفريقيا، فوضع طارق يده فوق عينيه ليظللهما، ولما أتم الباب انفتاحه هبت نسائم إفريقيا تحرك شعره وملابسه، وأبعد طارق يديه متأملاً في انبهار جمال المشهد.

كان طارق واقفًا فوق أحد التلال في إفريقيا، وقد تمددت خيوط الذهب من شمس إفريقيا على أراضي السافانا حيث ترعى قطعان الغزلان والجاموس الوحشي والزراف، وتنطلق الأسود وتسبح أفراس النهر بأجسادها المكتنزة في إحدى البحيرات التي انتشرت حولها صغار وحيد القرن وهي تلهو مع عائلاتها، وبجانبها وقفت

الأفيال في هدوء وهيبة تشرب من البحيرة العذبة والطيور تغرد حولها وتحلق بأشكالها المختلفة فوق أسراب النعام الراكض في كل مكان.

ثم سمع صوت سيزر ووجده واقفًا بجانبه يراقب في فخر اللوحة الربانية الجميلة والهواء يداعب شعره الكثيف الثلجي.

"هذا بلدي وهؤلاء أهلي".

"بلدك رائع الجمال".

"قليلون هم من يدخلون بلدي مثلك، وأكثرهم يدخلون من الأبواب الأخرى".

"ماذا تقصد؟"

لم يكد يفرغ من كلمته حتى سمع فجأة دوي انفجار، وارتعبت الحيوانات وساد الذعر بينها.. ثم رأى انفجاراً آخر.. كان العمال الذين دخلوا عنوة من أحد الأبواب يفجرون المناجم ويستخرجون الذهب والماس واليورانيوم. بجانبهم رأى مصنع كيماويات يلقي مخلفاته في البحيرة، ورجالاً بمناشير آلية يقطعون الأشجار التي كانت تصرخ وتستغيث وهي تقع في غصون أخواتها. ثم رأى الأهالي يحرقون السافانا ليزرعوا على أرضها، والحيوانات تجري خوفًا من اللهب والدخان المتصاعد، وصيادين غير شرعيين يجرون وراء الأفيال ويطلقون عليها الرصاص فيُرْدونها قتيلة، وآخرين بدبابات يدكون منازل الأهالي دكًّا.

جرى طارق خارجًا في رعب من الباب الذي دخل منه . . كان في الجنة ثم أصبح أمامه الجحيم بعينه، حانت منه التفاتة إلى الأبواب التي كانت موجودة، فوجد أن من حطموا الأبواب من قبل يخرجون محملين بالذهب، وآخرين باليورانيوم والبترول، وآخرين بحيوانات نافقة، وآخرين بأخشاب، وآخرين بالماس، وآخرين بحرائق وجيش منتصر وأموال ومدافع وزروع . . . إلخ .

صرخ طارق معترضًا ثم اعترض طريق الرجال وهو يصرخ قائلاً :

" أنتم تدمرون الطبيعة، تسرقون حق الأهالي ! "

هنا هتف أحد الرجال : " اقتلوه " وجرى نحو طارق شاهرًا في وجهه خنجرًا، لكنه لم يدرك طارق، فقد قفز بينه وبين طارق فهد وهو يزمجر مهددًا كاشفًا عن أنيابه . . ولما استلَّ رجل آخر مسدسًا وقف في وجهه أسد كبير يزأر في وحشية يحمي طارق، ثم استل آخر بندقية فوقف في وجهه فيل عظيم، وآخر وقف في وجهه وحيد قرن، وآخر وقف في وجهه فرس نهر، وهكذا وقف جيش من الحيوانات البرية أمام اللصوص في تحفز .

لما بدا الأمر متأزمًا توقف كل شيء فجأة كأنه مشهد سينمائي، وفجأة تلاشى الأشرار وبقيت الحيوانات على وضعها وكأنها تماثيل، ثم ظهر سيزر قائلاً :

" بلدي تُدَمَّر يا صـديقي، نحـن بحاجـة إليـك، نحتـاج إلى حبـك واهتمامك أنت وكل البشر " .

سأل طارق :

" وما الذي أستطيع فعله؟ "

سيزر :

" أحبنا وعلِّم الناس أن تحبنا " .

بدأ سيزر والحيوانات يختفون، وصاح طارق :

" سيزر ! "

تردد صوت سيزر في المكان وهو يقول :

" لا تحزن يا صاحبي . . في يوم من الأيام سنتقابل . . في يـوم مـن الأيام سأراك ثانية يا طارق، وسنرجع أصدقاء مثلما كنا " .

صاح طارق وهو يدور حول نفسه يبحث من أيـن يـأتي الصـوت ويقول :

" نتقابل؟ متى؟ وأين؟ "

قال الصوت :

" احمِنا " .

صاح طارق :

" سيزر ! أين أنت؟ "

قال الصوت :

" أحبنا وعلِّم الناس أن تحبنا " .

صاح طارق :

سيزر ! أين أنت؟ " أين أنت؟ "

" طارق ! طارق ! "

هب طارق من نومه وهو يتصبب عرقًا ونظر برعب لأبيه الذي أيقظه من نومه ثم نظر بجانبه إلى سيزر ، كان كما هو صغيراً ينظر إليه في براءة .

قال والده بقلق :

" كابوس أم ماذا؟ "

قال طارق وهو يمسك رأسه :

" لا ليس كابوسًا ، خير إن شاء الله " .

" قم يا حبيبي ارتَحْ في حجرتك ، تبدو متعبًا " .

التفت طارق ينظر لسيزر ، وشعر بالغرابة لما رآه على حجمه الصغير ينظر إليه بعينين متسائلتين .

" طارق، هل أنت متأكد أنك بخير؟ "

سأله والده فهز طارق رأسه وقام بتثاقل وجر قدميه نحو الباب، وقبل أن يغادر التفت إلى سيزر ثانية فقال والده:

" طارق، اذهب لترتاح وتتغدى " .

نظر طارق إلى والده بعينين مرهقتين وأشار لسيزر وهو يفتح فمه ليقول شيئًا، لكنه لم يلبث أن أغلق فمه ونظر إليه نظرة تقول: " لا عليك " .

ثم استدار وغادر الحجرة.

☼☼☼

في حجرته جلس طارق على مكتبه وتبعته تريسي التي جلست بجانبه على أرض الغرفة.

كان طارق شارد الذهن يفكر في الحلم الذي رآه منذ ساعات.

لما رفع طارق رأسه وقعت عيناه على الصور المعلقة على الحائط أمام مكتبه، كانت صوره مع عائلته وأصحابه، لكن أهم ما يميزها أنه لا صورة تخلو من حيوان ما. وفي ركن آخر من الغرفة كانت طاولة عليها عدة كاميرات واستاند للكاميرا وصور أخرى كثيرة بجانبها صورة مرسومة لوجه تريسي رسمها طارق بنفسه. قطع حبل أفكاره

صوت مميز صدر عن الحاسب الآلي يدل على اتصال أحد الأصدقاء به، كانت رسالة من صديقه علي وطلبًا لاستخدام الكاميرا، وافق طارق وظهرت صورة علي صديقه المقرب من مصر.

قال علي بمرح:

"مساء الخير".

ابتسم طارق ابتسامة مجاملة وقال:

"خير! ماذا تريد؟"

"مالك؟"

"مالي؟"

"لا، لا تمثل، تبدو كمن دهسه فيل!"

"أفكر في شيء ما".

"مسائل حساب ثانية؟"

"لا (تردد أيقول أم لا ثم قال): حلم".

"حلم؟ حلم آخر؟ الحلم عن الرجل العجيب والغابة الغريبة والحيوانات المريبة؟"

تذكر حلمه عن الرجل الإفريقي الغريب، وتذكر نوجورو، كان هناك تشابه بينهما! كم هذا غريب!

سأله علي :

لِمَ طال صمتك؟ وكيف لحقت أن تحلم أصلاً؟ المفروض أنك وصلتَ من المدرسة منذ قليل؟ "

قاطعه طارق :

" سأحكي لك حين تتوقف عن السخرية مني " .

علي :

" حسنًا، لقد توقفت . . هيا احْكِ " .

وحكى له الحلم .

قال علي معلقًا :

" على فكرة، هذا الحلم ليس غريبًا . . أتذكر لما سألت الأستاذة وفاء ماذا تعني كلمة ملوخية بالإنجليزية فطردتني من الفصل؟ يومها حلمت أني ملوخية وكانت الأستاذة وفاء تقطفني ! "

" وما علاقة هذا بما حكيته لك؟ "

صمت علي في حيرة وقال ببطء :

" لا أتذكر ! نسيت ! (يصمت) آه! أنا أقصد . . ربما لأنك نمت والأسد بجانبك، عقلك الباطن صوَّر لك أحلامًا عن الأُسود إلخ . . " .

فجأة سمعَا صراخ والدة علي وهي تناديه :

" عليييي؟! كل هذا الوقت في الاغتسال؟! نريد أن نأكل، هيا أسرع! "

عقد علي حاجبيه ثم نظر لطارق الذي مط شفتيه مما يدل على أنه اعتاد هذه الأمور، وسأل علي طارق في حيرة :

" أنا لم أتناول غدائي بعد. لكن ماذا عن القلقاس الذي تناولته منذ قليل؟! "

قاطعه طارق :

" القلقاس كان أمس أيها المسطول! هيا اذهب قبل أن تطبخك والدتك على العشاء!! "

لكن علي عثر بالكرسي لما صرخت أمه من جديد :

" عليييييييييي! "

ثم قام مهرولاً نحو الباب وهو يصيح ملوحًا لطارق بيده من وراء ظهره :

" أراك لاحقًا " .

تنهد طارق وهو يغلق المحادثة وقال بصوت منخفض :

" إن شاء الله " .

ثم قام وتمدد على سريره عاقداً ذراعيه خلف رأسه ناظراً إلى سقف الحجرة المليء بالنجوم الملونة التي تنير ليلاً عندما يغلق نور الحجرة وبجانبها صور لكائنات غريبة الشكل .

كان يفكر في الحلم . كانت أحلامه غريبة خاصة في الأيام الأخيرة، لكن يبدو أنها تزداد غرابة كل يوم . فما سر ذلك الرجل العجيب الذي يظهر في أحلامه؟ وما سر جميل الذي يقول إن اسمه سيزر؟ وأبواب إفريقيا؟ والحيوانات؟ وقاتلي الحيوانات؟ !

قفزت تريسي بجانبه وهي تحمل مجلة ما تتحدث عن البيئة وأن الأرض في خطر . أخذ طارق المجلة منها وأخذ يقلب صفحاتها وتوقف عند إحدى الصفحات التي تظهر بها صورة كبيرة لحيوان الشيتا ومكتوب على الصفحة بخط واضح : " حيوانات مهددة بالانقراض " ثم قلب الصفحة ليجد مقالاً عن إعادة التدوير، وأخرى بها صور لنمور وأسود وغوريللات ومقال للمغامر ومصور الحياة البرية الأكثر تفضيلاً لدى طارق جون وست . قال طارق لتريسي :

" أتدرين؟ أنت أكثر من يفهمني في هذا البيت يا تريسي ! "

في اليوم التالي حضر مندوب من جمعية حماية الأسود البيضاء لاستلام سيزر . لما دخل مع د . نادر إلى حجرة سيزر كان طارق واقفًا

وقد بدا واضحًا من عينيه الحمراوين المنتفختين أنه لم ينم تلك الليلة . قال د. نادر لطارق مشيراً للرجل :

" الدكتور إدوارد قادم ليأخد سيزر يا طارق " .

ثم التفت إلى الدكتور إدوارد وقال :

" هذا هو طارق ولدي الذي حكيت لك عنه، ولولاه لكان الأسد في عداد الأموات " .

مد الرجل يده مصافحًا طارق مثنيًا عليه وقال :

" الأسد جميل وقوي جدًّا، أنا أحييك على مجهودك معه يا طارق " .

قبل مرافقة سيزر ليدخل القفص الموضوع فوق العربة احتضنه طارق بشدة فسالت دموعه رغمًا عنه وقال لسيزر بصوت خفيض :

" أنت قلت لي : لا تحزن يا صاحبي، في يوم من الأيام سنتقابل، وسنعود صديقين كما كنا " . وأنا أصدقك؛ ولهذا لن أحزن، لأن لدي أملاً أن أراك ثانية . . خذ بالك من نفسك " .

ثم نظر له نظرة ذات مغزى وأضاف :

" يا سيزر ! "

واحتضنه بشدة وقام فساقه إلى داخل القفص وأغلقه . توتر سيزر

لما ابتعد طارق، خاصة لما أدار السائق محرك السيارة، ثم ركب الدكتور إدوارد وانطلق السائق بالسيارة وطارق ينظر إلى سيزر الذي لم يبعد عينيه عنه، ثم وضع يده على القضبان والسيارة تبتعد عن طارق وتبتعد وتبتعد. في عينيه اختفى طارق وحل محله صورة والدته وهي تناديه من فوق التل.. لم يكن وقتها قادراً على النداء، كان ضعيفًا، وفقدها للأبد، وها هو ذا ثانية يبتعد عن أكثر إنسان أحبه.. وزأر سيزر وزأر وزأر بقوة أكثر لدهشة طارق، وأخذ يضرب القفص بيديه وينادي صاحبه حتى اختفى طارق من أمامه لما انحرف الطريق، تمامًا مثلما اختفت أمه من حياته للأبد.

☼☼☼

منذ رحيل سيزر وطارق حزين، فقدَ مرحه وبات أكثر سرحانًا، كان يحاول أن يبدو طبيعيًّا كي لا يحزن والداه، لكن كان عقله يفكر في سيزر تقريبًا طوال الوقت: ترى كيف هو؟ وماذا يفعل؟ كيف يعامله من أخذوه؟ هل يشعر بالحزن مثله، أم وجد ما يسرِّي عنه؟ وبالطبع لاحظ والداه تأمله الصامت، فتحدثت معه والدته لما وجدته هكذا، قالت له إن الحزن يشل صاحبه، يجعله غير قادر على التفكير الصحيح، وإنه يجب أن يشغل وقته أكثر، ولا يعطي عقله الفرصة ليحزن، يجب عليه تدارك الأمر ونسيانه، ويجب أن يعتاد أمر فراق الحيوانات التي يتبناها ما دام يريد أن يكمل في هذا المجال.

كان طارق يعلم أن والدته على حق، وبدأ يشغل نفسه طوال اليوم في المدرسة والتمارين والخروج مع رامي وأصحابه ولعب كرة القدم وغيرها من الأنشطة، لكنه لم يستطع نسيان سيزر؛ ببساطة لأنه لم يكن يريد ذلك، كانت ذكرى وجود سيزر في حياته من أجمل الذكريات.

ويومًا ما كان أداؤه في تمرين كرة الماء دون المستوى ولم يعجب مدربه الذي تكلم معه بحدة، وبالطبع أخذ جاكسون وصديقاه في السخرية منه طوال اليوم واصفين إياه بالفاشل، وفي غرفة الطعام بالمدرسة تصنَّع أحد صديقي جاكسون الوقوع وسكب على طارق كوبًا من العصير المثلج، فاشتعل شجار بينه وطارق تحول لعراك بالأيادي لما تدخل جاكسون وصاحبه الآخر، وانتهى بعقاب جماعي لطارق وأصحابه ومن بينهم رامي وجاكسون ورفاقه. كان يومًا ثقيلاً، ليلتها لم يستطع طارق النوم فقام من سريره وأخذ حقيبة نومه وذهب لينام في حجرة سيزر بالحديقة، افترش الأرض يتأمل النجوم من سقفها الزجاجي كما كان يفعل وقتما كان سيزر موجوداً، وأخذ يحدث سيزر غير الموجود، يحكي له عن يومه وما يأمله لغد.

من نافذة حجرتهما كان أبواه يشاهدانه.. تمتمت أمه في قلق:

" أنا خائفة عليه ".

" لا تخافي، طارق عاقل وسيكون بخير " .

أما طارق فقد راح في سبات عميق .

بعد عدة ساعات كسر سكونَ الليل حركةٌ ما، وسط الحديقة شيء ما اقترب من طارق . استيقظ طارق على ضوء هائل وخيال ما غير واضح الملامح يحدثه .

" مرحبًا يا طارق " .

صاح طارق :

" من؟ من أنت؟ "

قال الشبح :

" أنا حارسة الغابة، جئت أبلغك رسالة وأحمل لك هدية وتكليفًا " .

" ؟؟ "

" جئت أحمل رسالة شكر من حراس الطبيعة، وأهديك هدية وتكليفًا بناء على ترشيح كاجيرا . مرحبًا بك في عالم الحراس " .

ثم لوحت بعصاها فانفتحت طاقة تحمل صورة سيزر وقد كبر قليلاً، كان يجري ويصيد مع عائلة من الأسود البيضاء، ابتسم طارق لهذا الخيال ثم لوَّحت بعصاها فاختفى وقالت :

" هذا مثال على ما يمكن أن تصنعه تضحية بني آدم من أجل كائن ضعيف، سيصبح سيزر رب أسرة كبيرة في البرِّية بفضل اهتمامك " .

ثم أكملت :

" عندما تستيقظ لا تفزع، فجائزتك وتكليفك سيكونان معك، فقط كن حذرًا، وإذا احتجت إلى مساعدة فلتذهب إلى نوجورو، وتذكر يا طارق . . نحن لا نصنع الحراس بل ننتقي الأنقى قلبًا، فليكن قلبك نقيًّا دائمًا، بالتوفيق " .

صاح طارق :

" انتظري، من هو كاجيرا؟ وأين هو نوجورو؟ من أنت؟ "

قالت وهي تختفي :

" ستعرف كل شيء في حينه " .

صاح طارق :

" انتظري لا ترحلي ! "

" طارق؟ "

" انتظري، انتظري " .

" طارق؟ استيقظ ! "

قام طارق من النوم وهو يصرخ :

" انتظري ، انتظري ! "

نظرت له أمه في قلق :

" طارق ! مالك؟ هل أنت بخير؟ "

نظر لها :

" أمي؟ أين ذهبت؟ أين حارسة الغابة؟ "

" حارسة ماذا؟ "

" حارسة الغابة كانت هنا و . . " .

ربتت أمه على رأسه وقالت بحنان :

" لقد كنت تحلم يا حبيبي . لا أدري لِمَ تنام هنا؟ هيا قم واستعد للذهاب إلى المدرسة " .

قام بثقل وتعب وكأنما كان يركض طوال الليل ، ودخل منزله فاستقبلته تريسي بلهفتها وحبها المعهود دائمًا وقالت له :

" طروقة طروقة . . صباح الخير يا صاحبي يا حبيبي " .

فرد عليها بتعب :

" صباح الخير يا . . . ؟؟ "

ثم نظر لها ونظرت له باستغراب .

قال طارق :

" تريسي؟ "

قالت بعد تردد :

" نعم؟ "

تراجع إلى الخلف في دهشة وقال وقلبه يدق :

" تريسي؟! أنت تفهمينني؟ "

هزت رأسها :

" و أنت تفهمني؟! "

دخل رامي وقرده الصاخب كولوباس وقال رامي :

" صباح الخير يا طروق؟ هل نمت جيداً أم اخترت النوم مع الناموس الإفريقي المتوحش اليوم أيضًا؟ "

غير أن طارق لم يرد عليه ولم ينظر له بل كان مسلطًا نظره على كولوباس الذي أخذ يأكل الفاكهة من على المائدة ويقول لتريسي :

" ما أخبار صاحبك الكئيب؟ "

قالت تريسي وهي تقفز فوق المائدة لتبعده عن الطعام :

" اخرس! لا تقل هذا عليه، إنه يفهمنا الآن " .

" يفهمنا؟ أنتِ التي لا تفهمين شيئًا! "

وقفز من المائدة وقذفها ببعض الفاكهة فجرت خلفه في كل مكان .

انتبه طارق إلى أن رامي يكلمه :

" طارق؟ هل تسمعني؟ "

نعم، سأذهب لارتداء ملابسي " .

وتركه وصعد إلى حجرته ليستحم ويبدل ملابسه .

" ما الذي يحدث لي؟ هل ما زلت أحلم؟ "

وقرص نفسه فتألم :

" لا، أنا مستيقظ، هل جننت؟ ما الذي يحدث لي؟ "

نزل لرامي متغير الوجه، أكثر من مرة يسأله رامي هل هو بخير، فيرد بالإيجاب أو لا يرد لشرود ذهنه . في طريقهما إلى المدرسة على دراجته كان رامي كعادته يتكلم ويلقي النكات، لكن طارق كان شارد الذهن يفكر في كل ما حدث له اليوم . . وقبل بلوغ المدرسة بقليل كان الطريق متوقفًا، ولأنهما على دراجتيهما فقد اخترقا الزحام،

واكتشف طارق أن حصانًا وقع أرضًا ولا يريد القيام من مكانه، وأخذ الناس يصرخون في مالكه ليحركه وهو يجذبه بقوة لكنه لا يريد أن يتحرك.

اقترب طارق ببطء من الحصان وسمعه، سمع تألمه وفهم ما يقول، وخفق قلبه بعنف، وفجأة ارتفع سوط صاحب الحصان، فوقف طارق حائلاً وصرخ فيه:

"انتظر، إنه يتألم من ظهره، لقد انزلق، أليس كذلك؟"

توقف الرجل:

"نعم".

"إنه لا يستطيع التحرك، ومهما ضربته لن يتحرك، عليك أن تحضر شيئًا ترفعه به، رافعة أو كاسحة؛ لأنه لن يتمكن من الوقوف، وإذا ضربته سأشكوك لمنظمة الرفق بالحيوان، وسيمنعك الناس.. لا يمكنك أن تضرب حصانًا عاجزًا!"

ونظر للناس حوله فأومأ بعضهم وتأفف البعض قائلين إنهم يريدون الذهاب إلى أعمالهم، سأله الرجل:

"وكيف عرفت كل ذلك؟"

"إن الأمر واضح كالشمس، أي طفل صغير يعرف أن الحصان لا يجلس إلا حين يمرض أو يكسر".

شعر الرجل بالحرج، فقد كان طارق على حق تمامًا.

تركه طارق بعدما اطمأن من مجيء شرطي وطلب سيارة برافعة لتحريك الحصان، كل هذا حدث ورامي واقف يتابع طارق باستغراب، لكنه لم يعلق وانطلقا حتى وصلا إلى المدرسة.

ظل طارق شارد الذهن لا يفهم كيف يستطيع فهم الحيوانات، ومر يومه بطيئًا وغريبًا، خاصة وأنه استطاع فهم الحوار الذي دار بين يمامتين وقفتا على شباك فصله.

رجع إلى منزله ونزل إلى الحديقة وجلس تحت ظل إحدى الأشجار وأخذ يفكر في الحلم، أتكون هذه هي الهدية؟ أن يفهم لغة الحيوانات؟ لكنها قالت إنه تكليف أيضًا، ومن يكون كاجيرا الذي رشحه؟ ثم تذكر الجزء الخاص بسيزر واتسعت ابتسامته، سيكون بخير ويحيا سعيدًا، وهذا كل ما يهم طارق. إحساس جميل أن يكون لك دور في إحداث فارق في حياة أحد، حتى وان كان حيوانًا.

ثم تذكر الحصان وما فعل معه وتساءل: هل التكليف هو استخدام الهدية في التخفيف من معاناة الكائنات الضعيفة؟

عشرات الأسئلة دارت في خلده لم يجد لها سوى إجابة واحدة: لا أدري.

ضيوف غرباء

جلست كارلا إيميليو العالمة المتخصصة في دراسة الحياة البرية تحتسي فنجان القهوة الخاص بها بينما تدون شيئًا ما في الدفتر أمامها، عندما اندفع رجل إفريقي إلى الحجرة وقال:

"الطرد وصل".

ثم خرج من الحجرة دون أن ينتظر منها إجابة، بينما حدقت هي في الفراغ مكان ما كان يقف وقلبها يخفق في قوة، لقد وصل، الطرد الذي طالما انتظرته والذي في سبيله أن يحقق لها كل آمالها أو يحطمها. قامت بهدوء، كان كل تفكيرها منصبًّا على الطرد القادم، لم تكن تشعر بشيء، أحست أنها كالفراشة تطير في حلم ما، ولما خرجت واستقبلتها أشعة الشمس الإفريقية القوية ظللت جبهتها بيدها وهي تنظر إلى الصندوق الخشبي المستقر فوق عربة النقل التي كان يحاول سائقها أن يضبطها بشكل معين لتكون مؤخرتها داخل سياج حديدي ومقدمتها خارجه.

لما رأت كارلا الصندوق أمامها أحست بنشاط غريب يدب في جسدها، ولم تنتظر أن تتوقف العربة بل أسرعت بتسلقها لتلقي نظرة على الطرد الخاص بها، ترى كيف هو؟ هل وصل بسلام؟ ونظرت عبر الفتحات فلم تستطع رؤيته بوضوح لكنها أدركت أنه بخير وأنه واقف على أقدامه. لما ضبط الفريق المساعد وضْعَ العربة أعطت هي الأوامر فقام أحدهم بفتح الصندوق ليندفع سيزر خارجًا منه بسرعة. أخيراً خرج من هذا الصندوق اللعين!

كان سيزر شديد الاهتياج والغضب، أخذ يروح جيئة وذهابًا في المكان الفسيح المحاط بسياج بعصبية، وتعالى زئيره تعبيراً عن غضبه وعدم سعادته بالبعد عن صديقه.

بعد فترة هدأ قليلاً، لكن الحزن في قلبه لم يقل، لفت نظره المكان الجميل حوله، أرض خضراء جميلة واسعة محاطة بسياج لم يمنعه من الاستمتاع بالمكان المفتوح على مرمى البصر، شعر بشيء من الارتياح وأخذ يدور في المكان يستكشفه، لفت نظره وقوف كارلا خارج السياج ومراقبتها له.

كانت كارلا باحثة متخصصة في الأسود البيضاء، في الأربعينيات من عمرها، حمراء الشعر بيضاء البشرة، وقفت تتأمل سيزر ثم قدمت له الطعام، وبينما هو يأكل كان قلبها ينبض في عصبية وقلق، كان سيزر يمثل بداية تجربة أعدت لها لسنوات، حلم تعبت في التحضير له

كثيراً، وها هو ذا الحلم يبدأ في التحقق، لكن ما زال أمامها الكثير، غير أن ما بقى لا يعتمد عليها مثلما يعتمد على هذا الأسد، إن الأمر كله في يده، إمَّا ان يكلل حلمها بالنجاح أو يدمره تماماً.

لما فرغ سيزر من طعامه ذهب ليستلقي في ظل إحدى الأشجار وبدأ يفكر في طارق، لم تفارقه صورة طارق منذ تركه.

كان يومًا بعد يوم يشعر بالوحدة أكثر، عدا في الوقت الذي كانت تحضر فيه كارلا، كانت طيبة معه جدًّا، تهتم بصحته وتغذيته جيدًا، تجلس بالساعات خارج قفصه تتحدث معه وتسرح بأفكارها أو تدون ملاحظات في دفترها، وكانت تعلم أنه بالتأكيد يشعر بالوحدة في قفصه، فكانت تهتم بجانب التسلية كأن تلقي له بثمرة قرع عسل ليلعب بها ويمزقها بأسنانه ومخالبه، وكثيراً ما كانت تسمح له باللعب في بركة المياه الاصطناعية بعد أن تملأها بالماء.

كان الوقت يمضي بصحبتها في سعادة، لكن كل هذا اللهو أبدًا لم يُنسه طارق، الذي لم يكن يعلم أنه كان كثيراً ما يجلس يتامل النجوم ليلاً وهو يفكر فيه.

غير أنه ذات يوم بدت كارلا مضطربة على غير عادتها ومنهمكة في الإعداد لشيء ما والتحدث كثيراً في هاتفها الجوال، ولما وصلت عربة النقل التي استقر فوقها صندوقان خشبيان كبيران، ولما فتح

العاملون الصندوقين، اندفع داخل السياج المنصوب بجانبه لبؤتان بيضاوان تقاربانه في العمر. اندفعت اللبؤتان في قفصهما تستكشفانه، وأول من لفت نظرهما في السياج المقابل على حدود سياجهما كان سيزر.

اقترب سيزر من سياجهما واقتربتا هما من السياج، كان الفضول يتملكه، إنه لم ير أسداً غيره في حياته من قبل قط، وها هما لبؤتان جميلتان في القفص المجاور له تنظران له في فضول. كان التعارف سريعًا، لينا وليني كان اسميهما، وكانتا مرحتين جداً، تحبان الضحك واللعب وأحبتا سيزر جداًّ وأحبهما هو جداًّ خاصة وقد أخرجتاه من حزنه على فراق صديقه طارق وقتلتا وحدته والملل الذي كان يحيا فيه. وبعد عدة أيام لما أحست كارلا أن سيزر ولينا وليني قد تعارفوا وتآلفوا فتحت الباب الموصل بين سياجيهما ليعيش الثلاثة معًا لا يفصلهم عن بعضهم أي فاصل.

وبعد عدة أيام أتى العضو الجديد، كانت لبؤة صفراء برية كبيرة في السن تدعى كايرا، كانت خطة كارلا وفريقها أن يجعلوها تتبنى سيزر ولينا وليني وتعلمهم مبادئ وأصول الصيد في البرية وتكون بمثابة أم بديلة لهم.

كان خوف كارلا ألَّا تتقبل اللبؤةُ الأمُّ الأسودَ الثلاثةَ الصغار، لكن خوفها تبدد لما استقبلتهم بحرارة وعاملتهم كأبنائها. ولما ألفتهم وألفوها قررت كارلا أن الوقت قد حان لعودة الأسود اليافعة ليبدءوا

حياة طبيعية في الغابة، ليكونوا أول أسرة من الأسود البيضاء النقية الخالصة تقودهم لبؤة صفراء لحين نضوج سيزر.

وبالفعل قام الفريق بتخدير الأسود الأربعة وحملهم داخل إحدى الطائرات الصغيرة لنقلهم إلى الغابة التي تبعد عن المكان حوالي ساعتين بالطائرة. وألقى العاملون الأسود النائمة في الطائرة، وركبت كارلا معهم مجهزة في يدها حقنة مخدرة تحسبًا لأي ظرف، فلو استفاق أحد الأسود في الطائرة وهي جالسة معهم فسيكون هذا موقفًا صعبًا.

وبالفعل في وسط الطريق شعرت كارلا أن كايرا بدأت تحرك رأسها، فأسرعت تحقنها بالمخدر لتنام مرة ثانية.

ووصلت الطائرة بسلام إلى المحمية المنشودة، وحمل العاملون الأسود النائمة ووضعوها في أرض الغابة وسارعوا بركوب السيارات، بينما قامت كارلا بحقن الأسود بحقن مضادة للمخدر، وكان أول من أعطته الحقنة المضادة هي لينا والأخير هو سيزر، وبينما هي تعطي الحقنة لسيزر استفاقت لينا وقامت تتخبط وتهجم على كارلا التي أعطت سيزر الحقنة بسرعة وأطلقت ساقيها للريح ووراءها لينا، وتمكنت كارلا أن تقفز داخل السيارة لتنجو بأعجوبة!

بدأت الأسود تتأمل المكان حولها، لم يكن هناك أسوار ولا أقفاص، أرض مفتوحة ممتدة على مرمى البصر، ولأول مرة في حياته يشعر سيزر بالحرية، أخذ يجري ويصعد التباب الصغيرة، يتأمل الغابة

والكائنات الجديدة ويلهو مع ليني ولينا وأمه بالتبني كايرا تراقبه في سعادة، وبدأ سيزر يتعرف على الغابة التي كثيراً ما رآها في أحلامه مع وجه أمه غير الواضح، نعم لم ينسَ سيزر والدته قط، ولم ينس يوم افتراقهما.

بدأت كايرا تعطيهم دروسًا في الصيد.. لم يكن الأمر سهلاً بأي حال من الأحوال خاصة مع لون الأسود الأبيض الذي كان يُصَعِّب عليها الاختباء وسط الحشائش الصفراء لنصب فخ للفريسة التي كثيراً ما كانت تلمح لونهم الأبيض وتفر هاربة.

أكثر من مرة تؤكد كايرا على الأسود أن تنبطح أرضًا حتى لا تراها الفريسة.

أما كارلا فقد كانت تتتبع مسار عائلة سيزر لتطمئن عليهم، وكانت تعلم قطعًا أنهم لن يستطيعوا تعلم الصيد بين يوم وليلة، فكانت كل عدة أيام تُلقِي إليهم طعامًا حتى لا يموتوا جوعًا، إلى أن يتعلموا الصيد.

بعد فترة تعلموا الصيد.. مر عام آخر وتغير سيزر، أصبح أسدًا يافعًا كامل النمو تحيط برقبته هالة من الشعر الأبيض الكثيف الثلجي، بينما علامة النجمة تتوسط جبهته، كان أسدًا مميزًا مختلفًا، قامت كارلا بإضافة عضو جديد للعائلة، لبؤة بيضاء تدعى كاتي.

كانت كارلا تنتظر اكتمال حلمها وتجربتها . . أن تكبر العائلة البيضاء، وينجب سيزر أشبالاً بيضاء نقية، ولحين مجيء ذلك اليوم كانت كارلا تتابع العائلة عن كثب وتدون تطوراتها في سعادة .

☼☼☼

في مبنى متطرف على أرض مملوكة لأحد رجال الأعمال بجنوب إفريقيا، جلس دكتور هانز يراجع عدداً من الأوراق في توتر، ثم اعتدل والعرق يتصبب من جبهته وهو يجز بأسنانه على شفتيه حتى كادت الدماء تنفجر منهما، ثم قام بسرعة لما دخل عليه رجل يرتدي ملابس أنيقة وتبدو عليه علامات الثراء الفاحش، ومد يده ليصافح الزائر الذي تجاهل يده الممدودة في وقاحة وسارع بسؤاله دون حتى تحيته :

" هل هناك أخبار جديدة؟ "

ابتلع هانز إهانته وسارع بالرد :

" نعم يا مستر جاكسون، ستفاجأ من النتيجة يا سيدي " .

تحمس السيد جاكسون وسأل متلهفًا :

" هل نجحت العملية؟ "

تغير وجه هانز وقال :

" حسنًا، ليس بالضبط يا سيدي، أرجوك تعال معي " .

وسارا معًا وقال هانز :

" كما أمرت يا سيدي ، فقد قمت بتجاربي على جينات الأسود والنمور والفهود ، واستطعت تحفيز جين النمو ، واستطعت باستخدام الهندسة الوراثية إنتاج أربع قطط مهجنة شديدة القوة والعافية والضخامة ، أحجامها ليست كأحجام آبائها وأمهاتها بل أكبر بكثير وأقوى . . لكن . . . " .

" لكن ماذا؟ "

" يبدو أن طفرة جينية حدثت فجعلتها أكثر عنفًا وشراسة ، أو ربما للأمر علاقة بطاقتها الهائلة وقوتها ، وأنها محجمة منذ ولدت في أقفاص خانقة ، مما جعلها شديدة العدوانية والعنف " .

قالها وهو يدخل إلى حجرة بها أربعة أقفاص بداخلها كائنات تروح وتجيء في أقفاصها بتوتر وعصبية ، عند أول قفص أشار بيده وقال :

" هذا هو الليبون[٧] نتاج تزاوج ذكر فهد مع أنثى أسد ، في العادة يكون حجم الليبون كحجم الفهد ، لكن كما ترى فهذا الليبون طفرة في حجمه وقوته " .

---

(٧) Leapon الليبون هو نتاج تزاوج ذكر فهد مع أنثى أسد .

كان الليبون يزأر بوحشية وهو يروح ويجيء داخل القفص، تبدو عليه علامات الشراسة والقوة.

"وهذا الرائع هو التايجون[٨]، وهو نتاج تزاوج ذكر نمر وأنثى أسد، وهذا التاي- لايجر[٩] نتاج تزاوج ذكر نمر مع أنثى لايجر".

"أما هذا العملاق"، وأشار بيده إلى أكبر قفص في المكان به وحش عملاق يروح ويجيء في قوة ظاهرة:

"هذا هو اللايجر[١٠]، نتاج تزاوج ذكر أسد وأنثى نمر، وفقًا لأبحاثي فإنه لم يحدث أن وصل لايجر أو أي قط لمثل هذا الحجم من قبل قط، فوزنه ٤٢٠ كيلو جرامًا وطوله ٣ أمتار ونصف تقريبًا[١١].

مجرد النظر إلى اللايجر جعل السيد جاكسون يشعر بالتوتر، التفت إلى هانز وقال:

---

(٨) هو نتاج تزاوج ذكر نمر مع أنثى أسد Tigon التايجون:

(٩) التاي-لايجر: Ti-liger هو نتاج تزاوج ذكر نمر مع أنثى لايجر.

(١٠) اللايجر: Liger هو نتاج تزاوج ذكر أسد مع أنثى نمر ويكون أكبر حجما من والديه أي أكبر من الأسد والنمر.

(١١) أكبر وزن وصل إليه لايجر في العالم هو ٤٠٠ كيلو جرام، وهو لايجر يعيش بالولايات المتحدة الأمريكية، يدعى هيركليز.

" ما هذه الكائنات؟ ! "

رد هانز باستغراب :

" أسود مهجنة قوية للبيع ، قمت بالإشراف على تهجينها كما اتفقنا " .

" وهل اتفقنا أيضًا على صناعة وحوش مجرد النظر إليها يصيب المرء بالهلع؟ هذه كائنات مصابة بالجنون مثيرة للأعصاب ، هل تتوقع من أحد أن يشتري حيوانًا يمكن أن يفتك به في منزله في أية لحظة؟ إن الأثرياء يحبون تلك الأسود لأنها تكون مستأنسة يمكنه أن يلاعبها ويفخر بذلك أمام أصدقائه ، لكن لِمَ يشتري أحدهم كائنات متوترة شديدة الشراسة والوحشية تظهر للمرء في أسوأ كوابيسه؟ "

" أعتقد أنها شديدة الاهتياج لقوتها ، وأنها تملك طاقات هائلة ، لكنها محجمة في مكان ضيق ، ولو خرجت في مساحات مفتوحة ستكون أكثر هدوءًا و . . . " .

قاطعه جاكسون في غيظ :

" مساحات مفتوحة؟ هل جننت؟ ستوضع في بيوت الأثرياء في أقفاص ، هل تظن أنني سأشترط على مشتريها أن يضعها في مساحة مفتوحة لتأكل أطفاله وإلا ازدادت جنونًا؟ ! "

صمت هانز في غيظ وخيبة أمل ثم قال :

" سأحاول إعطاءها مهدئات، سأحاول التصرف يا سيدي و . . . " .

لم يمهله جاكسون وقتًا آخر للكلام بل استدار معطيًا إياه ظهره في إهانة واضحة وتركه وانصرف وهو يقول :

" لديك مهلة شهر لتصلح الأمر، سأعرض صورها على الإنترنت، ولو لم تبع قبل نهاية المدة فسوف أبيعها مخنطة، هل تفهم؟ "

وقف هانز يراقب رحيل جاكسون في سيارته الفارهة وهو مقطب الجبين، لا بد أن يتصرف بأي شكل، سمع صوت نعيق صديقه الطائر المخلط القبيح الفريد من نوعه، فألقى إليه بقطعة من اللحم وسرح وهو يشاهده يلتهمها في شراسة وفي عقله رسم خططًا عديدة تضمن له النجاح والنجاة.

☼☼☼

بدأ طارق يحاول الخروج من دائرة الحزن التي أحكمت الإغلاق على قلبه، بشغل نفسه بأنشطة كثيرة ومرهقة تستنزف طاقته ولا تعطيه فرصة للتفكير في فراقه عن سيزر، كما بدأ يحاول فهم موهبته أو الهدية الجديدة التي أتته، وهي فهمه للغة الكائنات والتحدث معها،

بعد مرور بعض الوقت بدأ يعتاد الأمر بل ويستسيغه، كان يخرج مع والده في عمله عندما يذهب لتفقد الغابات أو دراسة أحد الكائنات في البرية ويبدأ يستمع لأصوات الغابة والكائنات بها، كان الأمر أشبه بالحلم. . أن يستطيع أن يميز صوت كل كائن من الكائنات وفهم نداءاتها وتهديداتها وحواراتها. أحيانًا كان يبتعد قليلاً عن والده في الغابة وهو يراقب كائنًا ما ويحاول التحدث معه، وكثيرًا ما التقط صورًا متميزة للكائنات التي استطاع مصادقتها أو التحدث معها.

مر عامان على فراق سيزر، سافر طارق خلالها إلى عدد من الدول الإفريقية مع والده، التقط خلالها صورًا كثيرة، ودخل خلالها في مغامرات كثيرة.

وبمرور الأيام أصبح لديه ألبومات من الصور المتميزة لكائنات نادرًا ما كانت تعطي فرصة لأحد بالتقاط صور لها، كائنات أتعبت مصوري الحياة البرية كثيرًا ليلتقطوا لها صورًا.

يومًا ما وبينما طارق يتناول إفطاره ويقرأ إحدى المجلات المحببة إلى قلبه، إذا به يجد خبرًا عن مسابقة في مجال التصوير الوثائقي للحياة البرية للمحترفين، مسابقة «أجمل صورة للكائنات البرية» وجائزتها الأولى هي السفر بصحبة جون وست أحد مصوري الحياة البرية المحترفين والمشهورين للقيام برحلة تصوير وثائقية معه في البرية.

بالنسبة لطارق كان حلم حياته أن يرافق أحد محترفي تصوير الحياة البرية ليتعلم منه، ولكن أن يكون أيضًا هذا الشخص هو جون وست فقد كان هذا حلمًا أكبر وأجمل؛ ولهذا بدأ يركز بشدة خلال أخذه للصور، بل حاول أكثر من مرة أن يجعل الحيوانات تقف في أوضاع معينة ليجعل الصورة أكثر حيوية وتميزًا، وبعد تدقيق شديد في الصور اختار بعضًا منها وأرسلها على عنوان المسابقة.

وبعد عدة أيام ظهرت نتيجة المسابقة، لقد حصل طارق على المركز الأول. لا يمكن أن يصف أحد شعور طارق ساعتها، كان يشعر بمزيج من السعادة والحماس والنشاط والقلق، سيقابل جون وست وسيرافقه ويتعلم منه احتراف تصوير الحياة البرية.

"هل شككت لحظة انك ستنجح؟"

قالها رامي وهو يحتضنه ويهنئه:

"أنا لم ارى في حياتي صورًا أجمل من تلك التي تلتقطها، كنت أعلم يا صديقي أنك ستفعلها".

كان الكل سعداء من أجله خاصة والديه، فقد شعرا بالفخر أنه استطاع اجتياز مسابقة صعبة كتلك، وأنه قاوم حزنه وتغلب عليه ووصل لهذا النجاح. ولما قابل جون وست كان مضطربًا يخفق قلبه

بشدة، لكن بساطة الرجل وابتسامته أذابت كل اضطرابه . . هنأه جون بالفوز وجلس يتحدث معه بخصوص الصورة الفائزة ثم قال :

" أتدري! إن الصورة الفائزة جميلة فعلاً، لكن المدهش هو أن معظم الصور التي بعثت بها للمسابقة كان يمكنها أن تفوز بالمركز الأول أيضا، إنك حقًّا موهوب يا طارق، فالصور مدهشة بحق! "

ثم بدأ يستعرض معه خطة السفر المبدئية وكيفية تجهيز حقائبه وما سيحتاج خلال الجولات في البرية . . . إلخ . . كان من المفترض أن يسافرا إلى المكان المنشود خلال أسبوع .

" ستسافر قبل أن ينتهي رمضان؟ لن يكون رمضان قد انتهى، أليس كذلك؟ "

سأله رامي .

" نعم " .

" وماذا ستفعل؟ "

" سأصوم وإن تعبت سأفطر " .

" لكن يا طارق إن لم أكن مخطئًا، أليس بالإمكان الإفطار إذا كنت مسافرًا؟ "

"نعم، لو تعبت سأفطر، لكني أريد أن أجرب الصيام والإفطار في الغابة مع غروب الشمس" .

ابتسم رامي ثم قال:

"حسنًا أيها الرومانسي، أعتقد أن الأمر سيكون مميزًا حقًّا، أتمنى أن تستمتع بوقتك وأن تكون الرحلة أجمل مما كنت تتوقع" .

"شكرًا يا عزيزي، وأنا أتمنى ذلك أيضًا" .

ساعد رامي طارق خلال الأيام التي سبقت سفره في ترتيب حاجياته وشراء اللوازم المهمة للرحلة، وأهدى لطارق مُدْيَة مميزة ذات نقوش إفريقية وطلب منه أن يحتفظ بها في جيبه خلال الرحلة لعله يحتاجها، شكره طارق كثيرًا على هديته المهمة. . وفي اليوم المحدد للسفر ودعه رامي في المطار مع والديه وأخته وتمنى له التوفيق والسلامة.

☼☼☼

في أحد المطارات النائية بجنوب إفريقيا وصلت شاحنة كبيرة تحوي الأسود الأربعة المهجنة، وبدأ بعض الرجال في نقل الأسود إلى قفص واحد كبير في طائرة خاصة، بينما وقف هانز يراقب عملية النقل حاملاً بين يديه صديقه الطائر العجيب المخلط من عدد من الطيور الجارحة، وبدأ يتذكر المحادثة الأخيرة التي دارت بينه وبين السيد

جاكسون الذي أمره بالتخلص من الأسود الأربعة، وتذكر قولته بالحرف:

"يكفي هذا، تخلص من تلك الأشياء قبل أن تتسبب في كارثة بوحشيتها هذه، ابعث لي بجثتها لأضمها إلى مجموعتي في الحديقة بعد تحنيطها".

حاول هانز أن يثني السيد جاكسون عن رأيه فلم يستطع:

"لقد أعطيتك مهلة كافية بلا جدوى، ولن أنفق مليمًا آخر في هذا العبث".

صاح جاكسون عبر الهاتف:

"لا تتأخر في إرسال ما قلته لك، فقد تعوض لي جثتها ما صرفت عليها بلا فائدة".

"رجل تافه".

قالها هانز وهو يتابع عملية النقل أمامه، كان ينقل أطفاله كما يسميهم إلى مكان آمن، بتعبير آخر كان يهربهم، لقد اتفق مع ثري آخر منافس بنفس المجال، على تبني التجربة، هناك سيجد مساحة أفضل يبدع فيها ويظهر قدراته التي لا يقدرها:

"التافه الأحمق، كيف تخيل أنه يمكنني أن أقتل أطفالي؟ تحفي الفنية؟ دراستي وعملي ومجهود عمري؟"

وحين ركب الطائرة وحلقت بعيداً نظر نظـرة أخـيرة إلى جنـوب إفريقيا وهو يودعها ساخراً، "وداعًا مسـتر جاكسـون، ولتـذهب إلى الجحيم!"، وجلس على مقعده مسترخيًا، وبدأ يحلم بالمكان الجديد، لديه خطط كبيرة لتلك الأسود، خطط ستجعلها في المرتبة الأولى فـوق الأسود العادية ولسوف...

لم يكمل عبارته فقد صدر صوت غريب من محرك الطـائرة، مـن حيث يجلس كان يمكنه رؤية الطيار ومساعده، طائرٌ ما ارتطـم بمحـرك الطـائرة، وانفجـر المحـرك بـدويٍّ مرعـب، وبـدأت الطـائرة تهـوي وتهوي، والطياران يحاولان السيطرة عليها، حاولا الهبوط بها بطريقة شراعية، واقتربت الأرض بسرعة وأخذت تقترب وتقترب ثم حـدث الارتطام، ارتطمت الطائرة بالأرض لكنها لم تنفجر، أخذت تزحف وتتخبط في الأشجار والتباب والصخور وتكسَّر جناحاها وبعـض مـن أجزائها وهي تزحف بسرعة كبيرة على الأرض، ثم ارتطمـت أخـيراً بإحدى الأشجار وتوقفت في عاصفة من التراب.

داخل الطائرة لم يكن ثمة حركة، ثم تحرك الطائر العجيـب وطـار نحو صاحبه هانز الذي كان قـد وقـع أرضًـا وفوقـه كرسـيه، لم يكـن يستطيع التحرك، كل ذرة في جسده كانت تؤلمه، تذوَّق طعم الدماء في فمه ثم بصقه وحاول الاعتدال لكنه صـرخ مـن الألم، كانـت إحـدى قدميه قد كُسرت بعدما ارتطم بها كرسيه وخنقها مثبتًا إياها بالأرض،

لم يكن يستطيع النهوض، كان مكبلاً بالكرسي من قدمه بأرض الطائرة.

التفت خلفه فوجد الطيارين ساكنين، ناداهما فلم يتحركا، أخذ يصرخ طالبًا النجدة، وكلما حاول إخراج قدمه صرخ ألمًا، وبدأ الطائر يصرخ بأصوات مزعجة، وحاول الخروج من أحد الشقوق الكثيرة في الطائرة، كان مرتعبًا، وقد أدرك هانز سبب رعبه بعدها بثوانٍ، كان يمكنه سماع أصوات الأسود الأربعة وهي تزأر في وحشيةٍ، وسمع وقع خطاهم القلق المهتاج داخل الطائرة وهم يحاولون التملص من القفص والخروج منه.

كان ذيل الطائرة قد انفصل عنها وانفتحت فجوة كبيرة في آخر الطائرة كافية لهروب الأسود المهجنة، كما تحطمت أجزاء من القفص أخرى حاولت الأسود الخروج منها إلى داخل الطائرة للفتك بهانز والطيارين، لكنها لم تستطع، فأخذت تزأر في غضب بينما هانز يتصبب عرقًا وطائره يصرخ في رعب وهو يحاول النجاة بنفسه والتملص من أحد الشقوق ليهرب من هجوم الأسود حتى استطاع الخروج خارج الطائرة.

أما الأسود فلما لم تستطع اختراق القفص للفتك بهانز، فقد التفتت إلى الفتحة الواسعة في ذيل الطائرة وخرجت منها، وفي الخارج حاولت مد أيديها من خلال الشقوق العديدة بجسد الطائرة في محاولة

أخيرة للوصول لهانز أو الطيارين، لكن الشقوق لم تكن من حسن حظ هانز بالاتساع الكافي لدخولها، فلما يئست تركت حطام الطائرة وانصرفت إلى داخل غابات السافانا الواسعة.

وعاد يخيم على الطائرة هدوء يصم الآذان، ولكن ضربات قلب هانز لم تهدأ وهو ينادي الطيارين فاقدي الوعي لنجدته:

"النجدة! استيقظا!"

كان مرتعبًا من فكرة أن يكونا قد ماتا، إلا أن حركةً ندَّت من أحدهما أشعرته ببعض الطمأنينة أن أحدهما على قيد الحياة وأنهما لم يموتا وإلا لبقي في هذه الطائرة إلى الأبد.

التايجون

اللقاء المنتظر

تثاءب سيزر في كسل ثم تمطَّى وقام من مكانه وهو يلقي نظرة على زوجاته النائمات في ظل إحدى الأشجار. كانت حرارة الجو بدأت تنخفض بعد انكسار الشمس فقرر أن يتفقد المنطقة، منطقة نفوذه. لقد أصبح أسدًا بالغًا ناضجًا له منطقة صيد خاصة به وبعائلته يدافع عنها ضد أي معتدٍ. من بعيد لمحه، كان الأسد كابر وعائلته الكبيرة يقتربون في وحشية وشراسة، وقامت زوجات سيزر تركضن بسرعة كرد فعل للزئير الرهيب الذي أطلقته زوجات كابر. كان عددهم يفوق عدد عائلة سيزر، كما كانت الإناث أكبر سنًّا وخبرة في العراك، فلم يستمر العراك طويلا بينهم، خسر سيزر أرضه دون خسائر في الأرواح.

انسحب سيزر وعائلته إلى خارج الأرض في حسرة لم يعوضها سوى إحساسه أن زوجاته بخير، خاصة لينا التي كانت حبلى وعلى وشك وضع أول مولود لهما. وبالفعل بعد عدة أيام وضعت لينا شبلا لونه أبيض كبياض الثلج.

كانت كارلا ما زالت تتفقد العائلة بين الحين والآخر، ولما ولد الشبل الأبيض شعرت بفرحة عارمة وأن تجربتها تسير على ما يرام من نجاح إلى نجاح. غير أن الأرض التي طرد منها سيزر كانت أرضًا غنية بالقطعان، أما تلك التي طرد إليها فقد كانت شبه قاحلة قليلة فيها فرص الصيد، ولأن الأيام كانت تمر دون أن تتمكن العائلة من الصيد، ولأن كارلا كانت تخشى على الصغير أن يموت من نقص الغذاء؛ فقد كانت تقوم بين الحين والآخر بإلقاء طعام لعائلة سيزر، في محاولة منها للحفاظ على الشبل الوليد وتقوية العائلة.

غير أنه يومًا ما بينما كارلا في طريقها لتفقد سيزر وعائلته إذا بها تلمح تجمعًا كبيرًا للنسور آكلة الجيَف، ولما اقتربت أكثر صعقت من هول المفاجأة، كانت النسور تأكلَ جثث الأسد كابر وعائلته التي قضت نحبها بالكامل، وتوقفت كارلا وصديقها وتفقدت الجثث:

"ما الذي حدث هنا؟ أهذا وباء؟"

صاح صديق كارلا مندهشًا لا يكاد يصدق ما يراه :

" كيف حدث هذا؟ "

التقطوا العديد من الصور ومقاطع الفيديو لدراسة الحادث وتسجيله .

كيف قتلت هذه الأسود؟ كان واضحًا أن معركة ما قد دارت بين تلك الأسود وحيوانات أخرى ، وأن ما قتلها لم يكن وباءً . لكن من فعل هذا؟ ليسوا صيادين ، فلا أثر لاستخدام أسلحة ، بل من الواضح أن ما حدث نتيجة عراك مع مجموعة من الحيوانات ، ولكن أي نوع من الحيوانات يمكنه أن يقتل أُسودًا بهذا العدد؟ لا يمكن أن يقتل أسدًا إلا أسد مثله ، لكن إن كان من هجم عليهم أسودًا ـ وهو ما يحدث دائما في الغابة ـ فلمَ قتلت الأسودُ الزوجات؟ من الطبيعي أن تهاجم ذكور الأسود بعضَها بعضًا ، ومن يغلب الآخر يطرده أو يقتله ثم يقتل أطفاله ، لكنه يتزوج نسائه ويملك أرضه ، فإذا لم يكن القتلة أسودًا فمن فعل تلك الجريمة غير العادية؟

" ما الذي يحدث في الغابة؟ "

تساءلت كارلا في خوف ؛ فهذا قد يكون نذيرًا بكارثة تدمر توازن الغابة البيئي بصنع اختلال في الهرم الغذائي ، وهو أمر قد يؤدي ـ إذا استمر ـ إلى هلاك الغابة كلها .

لو لم يطرده كابر من الأرض لكان هو وعائلته مكانهم الآن، حدث سيزر نفسه وهو يفكر في تلك الحوادث الجديدة الغريبة على الغابة، لم تكن تلك أول حادثة في الغابة، فقد قتل قبل كابر عدد كبير من الأسود والفهود والشيتا والضباع، وحتى حيوانات وحيد القرن لم تسلم من الأذى بالرغم من كونها قوية لا يمكن قتلها بسهولة، لكن يبدو أن الشائعات في الغابة حقيقية، هناك مجموعة من الوحوش الدخيلة على الغابة تقوم بنوع من الإرهاب وتستمتع بالقتل، لقد رأى ما فعلته بكابر. . إنهم يقتلون لمجرد القتل لا من أجل الغذاء، وكان الدور عليه وعلى عائلته لولا أن طرده كابر من أرضه.

وعزم سيزر على ترك أرضه والابتعاد إلى مكان أبعد عن الأحداث خوفًا على شبله حديث الولادة، لم يكن الارتحال سهلاً مع وجود شبل رضيع، لكن كان الرحيل لا بد منه. وبالطبع لم تترك كارلا سيزر يرحل دون متابعته بل تتبعت خط سيره للاطمئنان عليه وعلى شبله الوليد. وحين استقر في أرض بعيدة عن الأحداث ثبتت كارلا كاميرات مراقبة في أشجار كثيرة في منطقته تلتقط الصور كلما مر أمامها أي كائن.

يومًا ما وسيزر يصيد مع عائلته إذا به وجهًا لوجه أمام أسد ضخم عجوز نسبيًّا وعائلته، شيءٌ ما في الأسد وزوجته بدا مألوفًا، تواجهت

العائلتان دون هجوم يدرس كل منهما الآخر، رائحة تلك العائلة مألوفة، وجه هذه الأنثى دائمًا ما كان يزوره في أحلامه، ولما أن اقترب سايري وكاد أن يشن هجومًا على سيزر وعائلته، فجأة اهتزت الأرض من تحت أقدامهم. زلزال عنيف ضرب المنطقة واستمر لعدة دقائق، واضطربت الحيوانات وجرت القطعان متفرقة في كل مكان، وتفرق الكل وتوقف القتال قبل أن يبدأ، وفرت الأسود من أمام القطعان المهرولة مخافة الدهس، إلا سيزر الذي ظل ينظر إلى الأنثى زوجة الأسد منافسه، على الرغم من اختفائها وراء القطعان، واضطر أخيرًا إلى التحرك متفاديًا قطيعًا مضطربًا من الحمر الوحشية قبل أن يدهسه، لكنه مع ذلك ظل يحاول النظر من وراء القطيع الهارب الذي فرق بين مجموعتي الأسود باحثًا عن زوجة الأسد الآخر، ولما اختفى القطيع فوجئ بالمشهد أمامه، كانت الأنثى قد توقفت عن الهرب من القطيع وعادت تنظر إلى حيث يقف هو.

إذن فهي تنظر إليه هي الأخرى، هل يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا؟ كان وجه الأنثى هو آخر ما وقعت عليه عيناه قبل أن يدير ظهره ويتجه إلى مكان آمن بعيدًا عن القطعان الفارة.

على الناحية الأخرى وقف الأسد المنافس يثبت قوته وانتصاره، وقف سايري يثبت وجوده بزئير مدوٍّ، لكن تونجا وقفت تحدق في

الأسد الأبيض المنسحب من أمامهم، هذه العلامة بين عينيه، ولونه الأبيض ورائحته، وعيناه الزرقاوان، هل هذا ممكن؟ ولما عاد سايري إلى العرين لم تتحرك تونجا من مكانها بل ظلت صامتة تنظر إلى حيث اختفى سيزر وفي داخلها هب إعصار من الاضطراب واليقين أنه هو.

☼☼☼

قبل اللقاء القصير بين سيزر ووالدته بأسبوع، كان طارق قد وصل بصحبة جون ورجل آخر دليل يعرف المنطقة جيداً، على مشارف الغابة، في سيارة دفع رباعي مؤجرة من أجل مهمة التصوير التي من المفترض أن تستغرق أسبوعًا في تلك المنطقة. كانت المهمة هي البحث عن نوع معين من الأفاعي السامة التي تقطن جنوب إفريقيا وتدعى "الكايب كوبرا"[١٢] وتصويرها. وبدأ جون يعلِّم طارق كيف يبحث عن هذا النوع من الأفاعي وأماكن اختبائه المفضلة. وبالطبع كان يجب أن يترجلوا من السيارة للبحث عن الأفعى، وكانت الاحتياطات هي ضرورة محاولة البقاء بقدر الإمكان بجانب السيارة تحسبًا لأي حيوان ضارٍ.

---

(١٢) Cape Cobra أفعى الكايب أو الكوبرا الصفراء، وهي أفعى شديدة السمية متوسطة الطول تستوطن جنوب إفريقيا.

أثناء بحثهم عن الكايب كوبرا صادفوا عـدداً كـبيراً مـن الأفـاعي والكائنات، التقط لها طارق صوراً عديدة واكتسب معلومات عنها لم يكن يعرفها من قبل، كما قام جون بإمساك تلك الأفـاعي وهـو يخـبر طارق بأهمية سمومها:

"أحاول بقدر الإمكان جلـب أكـبر كميـة مـن السـم مـن تلـك الأفاعي للمساعدة في عمل مضادات لسمومها لإنقاذ الناس".

ثم أضاف مازحًا وهو يغمز طارق:

"أو لعمل مضادات للتجاعيد[١٣]".

ضحك الثلاثة فأضاف طارق مازحاً:

"أعتقد أن أختي كانت سـتحب أن تـأتي معنـا في رحلـة مضـادة للتجاعيد كهذه!"

علَّم جون طارق كيف يمسك الأفاعي بطريقة صحيحة باستخدام العصا المعقوفة أو بيديه:

---

(١٣) يستخرج من سم الأفاعي بروتينات عصبية سـامة تسـتخدم في صـناعة مـادة البوتوكس المضادة للتجاعيد.

" كان لدى أبي مامبا سوداء في المنزل، لكنه لم يكن يسمح لي بإمساكها أبدًا " .

قال طارق .

" المامبا السوداء من أخطر الأفاعي وأشدها سمية، ولا أنصحك فعلاً بمحاولة إمساكها " .

قالها جون وهو يلتقط أفعى شجرية مرقطة[١٤] بيديه :

" يجب ألا توتر الأفعى، بعض الأفاعي على الرغم من سميتها تكون مسالمة، مثل أفعى كريت[١٥] في أستراليا، فهي ودودة جدًّا على الرغم من خطورتها البالغة، وبعض الأفاعي عدواني ذو مزاج سيئ ويفضل الهجوم؛ لهذا يجب عليك أن تكون على دراية جيدة بأنواع الأفاعي ورد فعل كل واحدة، وهذا لا يأتي إلا بالدراسة والخبرة العملية " .

---

(١٤) Spotted Bush Snake وهي أفعى خضراء اللون مرقطة تعيش في إفريقيا طولها من ٦٠ـ٩٠ سم، غير سامة، تتغذى على الضفادع والسحالي، وهي بارعة في تسلق الأشجار والسباحة .

(١٥) Banded Sea Krait أفعى مائية تتنفس الهواء، وهي شديدة السمية، لكنها لا تهاجم إلا إذا شعرت بالخطر .

ثم أضاف :

" انظر إلى هذه الجميلة ، أفعى شجرية مرقطة لا تـؤذي الإنسـان ، ومع ذلك يقتلها الناس لأنها شبيهة بأفعى البومسلانج[١٦] السامة " .

كان الوقت مع جون يمضي سريعًا وجميلاً ، تمنى طارق ألَّـا تنتهـي تلك الرحلة أبدًا ، مضت الأيـام الثلاثـة الأولى بنجـاح ، اسـتفاد فيهـا طارق كثيرًا ، والتقط صورًا غاية في الجمال والتنوع .

ذات يوم بينما هو وجون والدليل جلـوس في السـيارة يشـاهدون غروب الشمس ، كانت عائلة من الأفيال قد وقفت ترتوي مـن بحـيرة صغيرة أمامهم ، كما وقفت على جانبيها قطعان متفرقـة مـن الغـزلان والحمر الوحشية . قال جون لطارق :

" لا تجد مشهدًا كهذا في أي مكان في العالم ، أتعلم؟ هـذا المشـهد الباهر قد نستيقظ يومًا فنجده قد اختفى ! "

كان طارق يعلم ما يقصد فقال :

" تقصد الصيد غير الشرعي للحيوانات؟ "

---

(١٦) Boomslang أفعى بومسلانج أفعى شـديدة السـمية تعـيش بـين الأشـجار ، طولها يتراوح بين ١٠٠ـ١٦٠ سم . وكلمة بومسلانج تعـني بلغـة الأفريكـانز (جنوب إفريقيا) : أفعى الشجر .

هز جون رأسه واسترسل قائلاً:

"للأسف، أتعلم، لقد انقرضت الأسود بالفعل من سبع دول إفريقية![١٧]"

صدم طارق من تلك المعلومة، وذكرته السيرة بسيزر وشعر بالقلق:

"أتعلم!"

قال طارق..

"يومًا ما ساعدت على إنقاذ أسد أبيض من الموت، لكن بعد أن كبر كان علي أن أتركه يحيا في الغابة، وكان عزائي أنه سيكون سعيدًا في بيئته الطبيعية، لكن لم أتخيل أنه حتى الأسود يتم إبادتها هي الأخرى".

"لا شيء يسلم من أذى الصيادين في الغابة".

ثم استطرد:

"أتذكر الآن! لقد قرأت شيئًا بالفعل عن إنقاذ فتى مصري لأسد أبيض، أحسنت فعلاً".

---

(١٧) حقيقة علمية.

سأله طارق :

" لقد قرأت يومًا أنه لا ينبغي أن يكون الأبوان بيض اللون لينجبا شبلاً أبيض ، هل هذا صحيح؟ "

رد جون :

" صحيح تمامًا ، فالأمر له علاقة بالجينات التي يحملها الأبوان ، يقول العلماء إن إفريقيا منذ آلاف السنين كانت أرضًا تغطيها الثلوج ، وكانت غالبية الأسود بيضاء لونها كلون الثلج ، كي تستطيع الاختباء وسط الثلوج ومباغتت الفريسة ، وكان هناك أسود صفراء لكن قليلاً لا يساعدها لونها على الصيد والاختباء . ثم حدث تغير في المناخ وذهب الثلج وأصبحت القارة أرض السافانا والصحاري ، فأصبح اللون الأصفر أكثر إعانة وكفاءة على الصيد ، بينما يفضح الأبيضُ الأُسودَ وسط الحشائش الصفراء ، فكثرت الأسود الصفراء بينما اندثرت تقريبًا البيضاء ، لكن بين وقت وآخر تحدث طفرة جينية فتجد أسدًا أبيض يولد متأثرًا بجينات الأجداد " .

" شيء جميل " .

" بالفعل ، شيء جميل أيضًا أن تستطيع أن تنقذ حيوانًا من الموت ، أنت تمكنت من ذلك أما أنا فلم أستطع " .

بدا حزينًا وصمت طويلاً، فاحترم طارق صمته حتى تكلم وهو ينظر إلى الأفيال أمامه في أسى:

"في يوم من الأيام كنت قد انتهيت من جولة تصويرية في كينيا وجلست أتابع غروب الشمس في أرض الماساي، كانت مجموعة كبيرة من الأفيال أكبر عددًا من تلك المجموعة التي أمامك ترعى بالقرب من بحيرة صغيرة، مشهد غاية في السلام، ودعتهم وتركتهم في أمان، وفي اليوم التالي عدت إلى نفس البقعة لأكمل جولتي التصويرية، ومع اقترابي من البحيرة إذا بي ألحظ أعدادًا ضخمة من النسور آكلة الجِيَف تحوم حول البحيرة من بعيد، ثم اتضح المشهد مع اقترابي، كانت عائلة الأفيال التي تركتها بالأمس جثثًا ملقاة على الأرض فوق بعضها البعض وقد قتلها أحدهم وقطع أنيابها العاجية، خمسة وأربعون فيلاً اتضح بعد ذلك أن ثلاثين منها كانت إناثا في أرحامها أجنة[١٨]".

ثم أضاف:

"لقد أصبح القتل الآن يتم بأحدث الأسلحة باستخدام القنابل اليدوية والمدافع الرشاشة والطائرات الهليكوبتر وأجهزة الرصد والتتبع

---

(١٨) حدث بالفعل عام ٢٠١٣ وفقًا لرواية منظمة الحياة البرية الإفريقية AWF.

بالأقمار الصناعية . . شيء أشبه بالحرب، فلا تعطي فرصة لأي حيوان للهرب، بل تجد جثثها وقد استلقى بعضها فوق بعض من قوة ودقة الهجوم وبغتته " .

أصدرت الأفيال أصواتًا لتعلن رحيلها عن البركة، تابعها طارق في حزن وإعجاب، بينما طلب جون من الدليل أن يعيدهم إلى الفندق .

أخبر جون طارق أنهم سيذهبون إلى مكان جديد خلال الأيام الثلاثة المتبقية للبحث عن نفس نوع الأفاعي، وأن المكان الجديد سيكون قاحلاً نسبيًّا خاليًا من الأشجار مقارنة بالمكان الذي استكشفوه سابقًا .

مرت الأيام الثلاثة الأخيرة بسرعة أيضًا وسعادة، استفاد طارق الكثير ودوَّن مغامراته في دفتر صغير . في اليوم الأخير بعد أن قاربوا على الانتهاء من التصوير باقتراب وقت الغروب، اقترح الدليل على طارق وجون أن يأخذوا صوراً تذكارية فوق أحد الجبال على حافة جرف كبير من ورائه غابة كثيفة بعيدة ذات إطلالة تخلب الألباب . وقف طارق بالقرب من المنحدر والتقط له جون عدة صور، ثم وقف جون مع طارق والتقط لهما الدليل صورة جماعية، ثم جاء الدور أن يقف الدليل بجانب جون على الحافة ليلتقط لهما طارق صورة

تذكارية. وقفا في نفس اللحظة التي كاد أن يتواجه فيها سيزر وعائلته مع والديه، وحدث الزلزال، فجأة اهتزت الأرض بقوة ثم بدأت تتشقق تحت قدمي طارق الذي قفز مبتعداً في اللحظة التي دوت فيها فرقعة تصم الآذان، وانهارت الحافة حيث يقف جون والدليل، وهوى الاثنان وسط الصخور في الهاوية.

بعدها سكن كل شيء، كان أعلى صوت هو صوت الصمت، ثم صياح الكائنات الآتي من بعيد. انتشر الغبار الكثيف في كل مكان، مرت عدة دقائق أشبه في طولها بالسنوات، ثم بدأ الغبار ينقشع، وبدأت ضربات قلب طارق تهدأ، حرك يديه وقدميه، كان بخير، ثم قام ينفض الغبار عن ملابسه يحاول أن يرى أي شيء عبر الغبار. مد قدمه أمامه فكاد يسقط، فاعتدل ونظر إلى أسفل، كان المكان حيث كان يقف جون والدليل قد انهار أسفل الجرف.

اقترب طارق بحذر من الحافة ونام أرضًا ونظر يبحث عن زميليه، ناداهما لكن جاوبه الصمت.. ولما هدأ الغبار أكثر تمكن من رؤية رأس جون بارزًا بين الركام وقد اندفن جسده اسفل التراب والصخور الهاوية، ولم يكن هناك أي أثر للدليل. نادى طارق جون كثيراً لكنه لم يتحرك، بدا واضحًا أنه قد فقد الوعي، وكان رأسه ينزف.

جري طارق إلى السيارة يبحث عن أي شيء يساعده على إنقاذ زميليه، كان يعلم أن الهاتف الجوال المتصل بالقمر الصناعي مع جون في جيبه، ولم يكن هناك لاسلكي في السيارة، أخرج خريطته ونظر

فيها لكن بلا جدوى، لم يكن عليها علامة توضح أقرب مكان للبشر، لم يكن أمامه أي حل آخر سوى قيادة السيارة والعودة من حيث أتى ليحضر النجدة لزميليه قبل فوات الأوان.

وجد طارق في السيارة بندقية لكنه لم يعرف كيف يستخدمها، حاول تحريك أجزاء منها وبالفعل شدت الأجزاء لكنه لم يكن يعلم إن كانت ممتلئة أم لا، وتمنى أن تكون ممتلئة، أدار المحرك وبدأ يحاول التحرك بالسيارة. . لم يكن أمرًا سهلاً، كان لديه فكرة عن القيادة، لكنه لم يقد سيارة كتلك من قبل قط، اعتمد على حدسه وتحركت السيارة، كان الأمر صعبًا ثم أصبح أكثر سهولة. والآن عليه أن يتذكر طريق العودة، كان المكان كله يشبه بعضه بعضًا، كان يأمل أن يظل سائرًا حتى يعثر على طريق ممهد، حينها سيكون قد نجا.

المكان حوله قليل العشب وقليل الشجر، مكان شبه قاحل، ليس ثمة حيوانات كثيرة، وحمد الله كثيرًا على هذا، ظل سائرًا بالسيارة على غير هدى والشمس والحر يقتلانه عطشًا في السيارة المكشوفة، كان صائمًا وقد أوشكت الشمس على الغروب، وبدأ تعب الصيام يحل به خاصة بعد الصدمة التي ألَّتْ به جراء الزلزال. لم يكن يتخيل أبدًا أن يوضع في موقف كهذا.

ظل يدعو بكل قلبه أن يجد الطريق قبل غروب الشمس، "أقضي ليلتي في الغابة بلا معدات، يا له من كابوس!" حدث طارق نفسه،

" ما دُمتُ في السيارة فسأكون بخير، لكنها لـن تحمـيني لـيلاً، لمـاذا لم تؤجر سيارة ذات سقف يا جون؟ ! "

لم يكـن طـارق يـدرك أن أسـوأ كوابيسـه علـى وشـك البـدء، وبالفعل غربت الشمس وبدأ الضوء يخفـت وطـارق لم يجـد الطريـق بعد، لم يحاول التوقف حتى ليأكل، شرب جرعة ماء ليكسر صيامه، لكنه لم يجد في نفسه أي رغبة للأكل، كانت أمعاؤه مضطربة وقد بـدأ القلق والرعب يتسرب إلى قلبه. فتى في الخامسة عشرة من عمره يسـير وحيدًا في غابة إفريقية ليلاً، يا له من كابوس ! !

وفكر طارق بسرعة: " لا يمكنني أن أظل سـائرًا هكـذا بالسـيارة ليلاً، قد تغرز، أو تلفت انتباه الحيوانات، هذا خطر، ينبغي أن أقـف وأهدأ وأشعل نارًا، نارًا كبيرة تبعد عني أي كائنات متوحشة " .

اختار شجرة من الأشجار حوله، تمنى لـو كانـت كـبيرة، لكـان بات على أغصانها ليلاً. . لكن المنطقة حوله كانـت مقفـرة أشـجارها ضعيفة وقصيرة. جمع على ضوء السـيارة بعـض الأغصـان ثـم قطـع بعضها باستخدام المدية التي أهداها إليه رامي. وتذكر رامـي فحـدث نفسه: " ادعُ لي يا رامي فأنا في مأزق " . وأشعل النار وجلـس يسـند رأسه على الشجرة وقد ترك ضوء السيارة مضاء حوله ليؤنسه.

سرعان ما هبط الليل واسودَّ كل شيء حوله، كانت ليلـة اكتمـل فيها القمر، سطع هو والنجوم بضوء هادئ بدد قليلاً من وحشة المكان

الذي ساده السكون إلا من حركة الأغصان مع النسيم وأصوات الحشرات والضفادع الآتية من هنا وهناك. أغلق طارق عينيه، كان مرهقًا، وتذكر أنه لم يأكل شيئًا منذ البارحة، فقام وأخرج بعض الطعام والتهمه مضطرًّا دون أن يشعر بطعمه، لم يكن يشعر بالجوع، بل كانت معدته ترفضه من عصبية الموقف لكنه خشي أن يُفقده نقص السكر في دمه وعيَه، فضغط على نفسه وأكل وشرب ثم تيمم ووقف ليصلي.

أخذ نفسًا عميقا وبدأ في الصلاة: "الحمد لله رب العالمين" وبدأت عيناه تدمعان، "نعم، يا ربي أحمدك على ما أنا فيه، اللهم أنقذني".

شعر وكأنه أول مرة يصلي، لعلها أول مرة يصلي وهو في موقف كهذا، انتهت الأسباب، لن ينقذه إلا الله، لا شيء في يده، فقط الدعاء ولينتظر الإجابة والغوث.

سجد ودعا الله من قلبه أن ينجيه، وحين فرغ من صلاته كانت نفسه أكثر سكونًا وهدوءًا، جلس مستندًا إلى الشجرة يتأمل المكان حوله، ثم نظر إلى السماء، إلى ملايين النجوم اللامعة، يا له من جمال! يا لها من سكينة!! ثم تذكر جون، ترى كيف حاله هو والدليل؟ دعا الله أن يكونا بخير. ظل جالسًا يتأمل المكان حتى غلبه تعبه فنام وهو جالس.

فجأة شعر أنه يجب أن يستيقظ، حين فتح عينيه كانت النار التي صنعها باتت أصغر، لكن هذا لم يكن سبب استيقاظه ولا تسارع ضربات قلبه، كان السبب هو تلك البؤر النارية المحدقة فيه كالشياطين والتي حاصرته بضحكاتها من كل زاوية، كانت تتحرك بسرعة وشراسة، قام منتفضًا ورفع البندقية في وجه أحدها ثم أطلق النار، دوى الانفجار يهز الأرجاء، ارتعبت الضباع وابتعدت غير أنها عادت ثانية، شد طارق الأجزاء وأطلق الرصاصة الأخرى، وابتعدت الضباع غير أنها عادت ثانية تحاصره، أعماها جوعها، وبدأت تقترب وتتجرأ. . هنا قفز طارق في السيارة وأدارها بعصبية، لكنها رفضت أن تدور، حاول مرة وأخرى وأخرى لكن البطارية كانت قد ضعفت. . لقد ترك نور السيارة مضاء ليأنس به فتسبب ذلك في ضعف البطارية.

وبدأت الضباع تهاجم السيارة، قفزت بداخلها فخرج طارق يحاول الهرب، لكن إلى أين، إنه لا يكاد يرى شيئًا في هذه العتمة، أمسك البندقية وبدأ يضرب بها أي ضبع يقترب منه، لكن العدد كان ضخمًا، وانقض أحدهم على ساقه فسقط أرضًا، واندفع آخر يجره من قدمه، بينما انقض آخر على رأسه وآخر على ذراعه وهو يصرخ ألما ورعبًا، يحاول الاقتراب من النار وكأن هناك خلاصه.

لكن وسط الضحكات وصراخ طارق علا زئير مرعب ثم شعر طارق بجسد ضخم يقفز فوقه وبالضباع تتناثر من حوله، وتحولت ضحكات الضباع إلى صرخات، كان طارق قد شارف على فقد وعيه من الصدمة والألم، لكنه كان يسمع صرخات الضباع وضحكاتها وزئير أسود كثيرة حوله، فتح عينيه بصعوبة، كانت معركة ما تدور بالقرب منه، زئير أسود يدوي في المكان مع صرخات وأصوات لقتال شرس يجري حوله، قربه، لكن لا شيء يمسه، رأى الأسود تنقض على الضباع التي تحاول الاقتراب منه وتقتل بعضها بقوة معطية للبقية درسًا قاسيًا ألا يقتربوا من طارق، من عشائهم! هكذا حدث طارق نفسه وهو لا يزال يحاول الزحف للاقتراب من النار، إنه الآن عشاء يتقاتل عليه الجميع!

بدأت أصوات الضباع تبتعد، كان طارق قد زحف حتى اقترب من النار ثم خارت قواه، كان يريد أن يصرخ ألمًا بعد أن تحول جسده إلى حقل من الجروح النازفة، ستأكله الأسود، أراد أن يستغيث لكن صوته انحشر في جوفه، لم يكن في جسده قوة لذلك، فتح عينيه في ضعف فوجد الأسود قد وقفت حوله تتابعه، أشباح بيضاء عكست عيونها ضوء اللهب، لكنها لم تقترب منه، كانت فقط تنظر إليه.

ثم تباعدت اللبؤات تفسحن الطريق فتقدم في بطء جسد ضخم لأسد ذكر سبقه ضوء عيناه المضيئة في الظلام فخلع قلب طارق من ضلوعه رعبا.. لكن مع تقدم الأسد داخل دائرة الضوء خيل لطارق أنه تعرف في وجهه على علامة ما يعرفها جيدا.

هذا الوجه، هذه الندبة، إنه يعرف هذا الأسد، لقد رآه من قبل، في حلمه، منذ عام ونصف تقريبًا، هـذا الأسـد الأبـيض الكـبير، ذو العينين الزرقاوين والجرح في جبهته على شكل نجمة، الـذي وعـده في الحلم أنه سيلتقي به يومًا ما ليعودا أصدقاء.

"سيزر!"

نطقها طارق في ضـعف، إنـه صـديقه سـيزر، لم تـأت الأسـود للعشاء، لقد أتت لإنقاذه.

"طارق".

قالها سيزر وهو ينزل جالسًا بجانب طارق:

"تمسك بي".

وفهم طارق ما يريد سيزر فقام في ضـعف يتسـلق ظهـره ليسـتقر فوقه، وقام سيزر يسير بطارق في ليل الغابة وحولـه عائلتـه وانطلقـت فلاشات الكاميرات التي وضعتها كارلا تضـيء ظـلام الليـل مسـجلة لقطات لمشهد أغرب من الخيال!

☼☼☼

تمطَّى سابو فوق سريره المكون من بعض الخيش على أرض كوخه وتثاءب في كسل، يجب أن يستيقظ الآن، ياللحياة الشاقة، لِمَ لا يمكنه النوم للظهيرة؟! تقلب في كسل ثم سكن جسده وبدأ شـخيره يعلـو. فجأة انتفض جسده وقام قافزًا يجري صوب باب الكوخ، ملتقطًا رمحه

بسرعة البرق وقد علا صراخ استغاثة شق سكون الفجر، لم يكن رعبه فقط بسبب الصراخ، بل كانت صاحبة الصراخ هي السبب، كانت زوجته التي استيقظت قبله كعادتها كل يوم، كانت تصرخ:

"أُسود، أسود، النجدة!"

جرى إلى حيث كانت ومعه أهالي القرية الذين أيقظهم صراخها واندفعوا برماحهم لينقذوها من براثن الأسود، كانت زوجته بخير لم يمسها سوء، شعر ببعض الاطمئنان، لكنه لما نظر إلى حيث كانت تشير أحس بشعر رأسه يقف، فأمامه وقفت مجموعة من الأسود البيضاء البالغة على أعتاب القرية تنظر إلى أهالي القرية بلا حركة، لم يكن هذا ما أرعبه، بل شيء آخر، جثة فتى صغير تنزف بشدة وقد استلقت فوق ظهر الأسد الذكر الذي اصطبغ فراؤه الأبيض بلون دم الفتى.

بدأ الرجال يلوِّحون برماحهم ليخيفوا الأسود، لكن إشارة من زعيم القرية أوقفتهم، كان رجلاً حكيمًا أدرك أن شيئًا غير مألوف يحدث، وبالفعل بدأت الأسود ترجع إلى الخلف في بطء وكأنها تثبت حسن نيتها، بينما بدأ الأسد الذي يحمل الفتى يتقدم ببطء ثم أخذ ينزل أرضًا شيئًا فشيئًا حتى ربض ملامسًا الأرض، ثم بدأ يميل بظهره ببطء لينزلق جسد الفتى أرضًا بسرعة دون أن يتأذى حرصًا على عدم

ارتطام رأسه بالأرض، ثم قام الأسد ونظر إلى الفتى ثم إلى أهالي القرية الذين تجمدوا كالتماثيل، وأخذ يتراجع ببطء وكأنما يقول لهم: أنقذوه.

لدقائق لم يتحرك أحد، كانت مظاهر الصدمة بادية عليهم جميعًا، على مدار حياتهم لم يروا قطُّ شيء كهذا ولم يسمعوا به من قبل، الأسود لا تنقذ البشر، لا يمكن، ثم لدهشتهم ندَّت من الفتى حركة ضعيفة وصاح الزعيم:

"إنه حي!"

وانطلق ناحية الفتى مع أهل القرية:

"أحضروا ساحر القبيلة بسرعة، إن الفتى حي، هذا أمر لا يصدق، يااللآلهة!"

حوط الأهالي طارق وحملوه إلى أحد الأكواخ، وحضر ساحر القبيلة وبدأ يضمد جراح طارق بينما بعث زعيم القبيلة بعض الرجال لأقرب مدينة حضرية لإبلاغ السلطات.

كان سابو من بين الرجال الذين ذهبوا لإحضار النجدة للفتى، خرجوا جميعًا حاملين الرماح حماية لهم في الطريق، ثم صاح أحد الرجال مشيرًا إلى أحد التلال القريبة نسبيًّا، كان الأسد الأبيض الذي أتى بالفتى رابضًا ينظر إلى القرية:

" أنا لا أصدق ما يحدث " .

قال صديقه هازًّا رأسه :

" وكأن هذا الأسد ينتظر ليطمئن على الفتى أو يحرسه ، شيء لا يصدقه عقل " .

هز سابو رأسه مؤيداً ثم أشاح بوجهه عن الأسد مكملاً طريقه مع أصدقائه ، وبين الحين والآخر كان ينظر خلفه فيلمح الأسد الأبيض لا يزال رابضًا فوق التل .

☼☼☼

فتح طارق عينيه ببطء وسمع صوتًا يعرفه جيداً يقول :

" إنه يستفيق " .

كان صوت والدته التي كانت تجلس على حافة سريره في المستشفى وقد أمسكت يده التي عُلِّقت بها المحاليل . اقترب منه رجل يلبس معطفًا أبيض وبدأ يتفحص عينيه ويسأله عدة أسئلة :

" كيف تشعر؟ "

" متعب ، أريد ماء " .

" ما اسمك؟ "

" طارق " .

" كم أصبعًا هؤلاء؟ "

" واحد " .

" هل تحب ال . . .

لكن طارق قاطعه وهو يحاول الاعتدال قائلاً :

" يا إلهي! جون، جون والدليل، يجب أن تنقذوهما، لقد وقعا من فوق حافة الجرف و . . . " .

وانهار على السرير ضعفًا . . لم يستطع إكمال العبارة، وهدأته والدته :

" إن جون بخير، لقد تم إنقاذه وانقاذ الدليل، هديء من روعك " .

أما الطبيب فقال مبتسمًا :

" لا أظنني بحاجة إلى أي اسئلة أخرى . . إن ذاكرتك بخير يا فتى، حمدًا لله على سلامتك، لقد كتب لك عمر جديد " .

وبدأ يخط شيئًا، في الوقت الذي اندفعت فيه شمس والدكتور نادر ورامي والدكتور لحام إلى الغرفة :

" لقد استيقظ، حمدًا لله على سلامتك يا طارق " .

" أرعبتنا يا رجل " .

طبعت شمس قبلة على جبهته المضمدة، بينما اقترب منه رامي وأمسك يده يشد عليها ويقول :

" لا أصدق أني كدت أفقدك، حمدًا لله على سلامتك، كيف تشعر الآن؟ "

" أشعر بضعف شديد وآلام في جسدي، ماذا حدث يا رامي؟ "

" ألا تتذكر؟ "

لم يرد، إنه يتذكر خيالات أحداث، لكنها كلها تبدو كالحلم :

" لقد كنت تائهًا في الغابة وهاجمتني الضباع ثم . . . " .

اتسعت عينا والدته وهي تساعده على التذكر وحكي ما حدث فقال بتردد :

" جاءت أسود، كثيرة، بيضاء و . . . " .

توقف عن الحديث لما شعر أنهم ينظرون إليه وكأنهم ينتظرون منه أن يقول شيئًا معينًا، وقالت والدته :

" أكمل يا طارق، قل ماذا تتذكر؟ "

" سيزر، لقد أنقذني سيزر " .

التفتت راجية وقامت من مقعدها وهي تقول :

" لا أصدق، أنا لا أصدق " .

قال طارق :

" كان حلمًا، أليس كذلك؟ من أنقذني؟ "

وبدأت والدته تبكي، فسألها طارق :

" أمي؟ "

ربت والده على كتفها وابتسم :

" لقد كانت تكتم انفعالاتها طوال اليومن الماضيين، والآن يجب أن تخرج كل ما كبتَتْه، لقد أنقذك سيزر يا طارق، أنت لم تكن تحلم " .

" حقًّا؟ "

حكى له والده كيف حمله سيزر إلى القرية وأن زعيمها أرسل في طلب الإسعاف فجاءت طائرة حملته إلى المستشفى .

" ماذا عن جون؟ "

" بعد أن رحلتَ بالسيارة استفاق، واستطاع بالرغم من جروحه والكسور الكثيرة بجسده أن يصل إلى التليفون المحمول الذي كان يضعه في حقيبته واتصل بأصدقائه وتتبعوا إشارة الهاتف وأنقذوه

وأنقذوا الدليل، بحثوا عنك لكن الظلام كان قد حل وقرروا أن يكملوا بحثهم في النهار، لكن سيزر سبقهم ووجدك، أنا لا أصدق ما حدث، لا أحد يصدق، للمرة الثانية يا طارق أصبحت حديث جنوب إفريقيا" .

ابتسم رامي وأعطاه الجريدة التي نشرت الخبر وقال :

"لقد أصبحت مشهوراً يا صديقي، كالعادة!"

أخذ طارق الجريدة وبدأ يقرأ شهادات أهالي القرية وضربات قلبه تتسارع، ليلتها تمدد في سريره يفكر في سيزر وفي الوعد الذي وعده إياه وتحقق، في الحلم طلب منه سيزر أن يساعده على أن يحب الناس بلاده وأهلها، حقق سيزر وعده فماذا عن طلبه؟ لماذا يشعر أن ذلك لم يكن مجرد حلم، خاصة بعد كل ما حدث له من اكتسابه تلك الإمكانية الغريبة في فهم لغة الحيوانات والتحدث معها، ترى كيف هو سيزر الآن؟ ماذا يفعل؟ إنه لا يكاد يصبر على لقائه. تذكر الضباع وهجومها عليه، تذكر دفاع سيزر عنه وعراكه مع الضباع هو وعائلته.

تقلب في سريره وقد أغمض عينيه وعلَتْ شفتيه ابتسامة جميلة، غداً يومٌ أفضل بسبب سيزر.

تحالف الأشرار

وقف الخنزير البري يأكل وهو يتلفت حوله في حذر ثم فجأة أطلق سيقانه للريح في الوقت الذي ظهرت فيه لبؤة صفراء مقطوعة الأذن وقد انطلقت خلفه في إصرار، لكنه كان أسرع، وبدأت المسافة بينهما تتسع وتتسع ثم توقفت وهي تلهث وتنظر إلى الخنزير الذي اختفى مبتعدًا في سرعة.

إخفاق آخر ضمن سلسلة الفشل في الصيد وحدها، كانت زونا متعبة فجلست تستريح في ظل إحدى الأشجار وقد ضمر بطنها جوعًا، وأخذت تتذكر حياتها السابقة مع سايري وأنها فقدت كل ذلك بسبب تونجا، تذكرت كيف أنها تركت عائلتها منذ عامين وقد كانت منكسرة، مجروحة، الألم في كل مكان تقريبًا بجسدها بعد أن طردها سايري، وكيف أنها جرت مبتعدة عن أرض سايري دون أن

تتوقف لحظة، كانت رائحته في كل مكان، وكان يخيل إليها أنه يتبعها ليقضي عليها؛ ولهذا على الرغم من جروحها وآلامها ظلت تسير مبتعدة بكل ما بقي لها من قوة.

والآن بعد مرور عامين على طردها ها هي ذي وحيدة قد التأمت جروح جسدها، لكن جرح كرامتها الكبير لم يلتئم بعد. كان بقاؤها بمفردها أمرًا صعبًا. محاولاتها للصيد كلها فاشلة تقريبًا، ولذلك كانت تهاجم الآخرين وتسرق صيدهم.

وبمرور الوقت اعتادت ذلك وأصبحت هذه حياتها، كانت حياة خالية من أي معنى أو هدف. وليلاً، كانت تفكر في سايري وتونجا، لم يشفع لتونجا تدخلها وإنقاذها لحياتها، على العكس، زادها كرهًا لها وحقدًا عليها، كانت تكرهها، تلك التي تظن أنها أفضل منها، تتمنى هلاكها وانتهاءها، وكذلك سايري، نعم، لقد أصبح مثله مثل تونجا بالنسبة لها، تكرهه وتتمنى هلاكه.

غير أن الفضول كان يأكلها، تريد أن تعرف كيف هم وماذا يصنعون؟!

يومًا ما قررت قرارًا خطيرًا، ستذهب إليهم وتتجسس عليهم من بعيد.

لكنها في طريقها إلى أرض سايري توقفت لما سمعت أصوات عراك وحشي، سارت ببطء واقتربت من المكان، كان الأسد كابر

وعائلته يتعرضون لهجوم من أربعة كائنات غريبة الشكل، كائنات مزيج من الأسود والفهود لم تر مثلها من قبل. كانوا أقوياء وحشيين غاية في العدوانية والشراسة، ذهلت من قوتهم ومما فعلوه، لقد دمروا العائلة كلها تقريبًا إلا من استطاع الهرب، كانوا أشرارًا، وأعجبها ذلك فقررت أن تتبعهم.

أُصيب أحدهم في العراك مع عائلة كابر إصابة أقعدته، كان أصغرهم حجمًا وأغربهم شكلاً، أقرب للفهد منه للأسد، كانوا يلقبونه ليبون. ظلت تراقبهم من بعيد دون أن يلاحظوها، وجاءتها الفرصة لما رحل الثلاثة وتركوا رابعهم المصاب يستريح. كانت تخشى الاقتراب منهم، لكن بقاء ليبون وحده وهو مصاب لن يشكل خطرًا، وقررت انها ستحاول التقرب منه.

وقفت غير بعيد تراقبه، فلمحها وظل يراقبها، كان يشعر بالوحدة، منذ أن نزل هو وإخوانه في هذا المكان واللايجر لا يتوقف عن الهجوم على كل ما يقابلهم من كائنات، يمنعهم من الزواج وتكوين أسرة، فقط يعتدون على الكل بسبب وبدون سبب، إلى أن اصيب في المعركة الأخيرة، وها هو ذا جالس يشعر بالألم الشديد وقد تركوه ليذهبوا للاعتداء على المزيد من حيوانات الغابة، لقد سئم هذا ويريد أن يحيا حياة عادية ويكون له زوجة وأشبال، ترى هل هذه صدفة؟ أن

تأتي تلك اللبؤة في نفس الوقت الذي يكون هو فيه وحيداً؟ لو كان اللايجر معه لكان قتلها دون شك.

اقتربت منه ببطء حذر، خشيت أن تكون إصابته تسمح له بالهجوم عليها:

"مرحبا".

قالت بتردد، لم يرد:

"أنا زونا، تبدو مصاباً، هل تريد مساعدة؟ هل أنت بخير؟"

كرهت نفسها، تبدو كتونجا لما أوقعت سايري في حبالها، لم يرد، كان ينظر إليها فقط، كان متردداً، ماذا يقول؟ هل سيسمح له اللايجر أن تكون له رفيقه؟

إنها تبتعد، لا بد أن يفعل شيئًا وإلا رحلت:

"انتظري".

استدارت إليه، أخْفت ابتسامتها، الخطة تسير بنجاح.

☼☼☼

نزلت كارلا من سيارتها ذات الدفع الرباعي ومشت في الغابة، وبدأت تجمع شرائح الذاكرة الإلكترونية التي ركَّبتها في الكاميرات المعلقة على الأشجار في الغابة في منطقة نفوذ سيزر، والتي تتابع من

خلال ما تلتقطه من صور الأحداث التي تمر في أرض سيزر كنوع من إحكام دراسة الأوضاع في المنطقة والتعرف على نشاط عائلة سيزر وتفاعلها مع الكائنات الأخرى المختلفة على أرضها .

في معملها بدأت تحمِّل الصور على الحاسب الآلي وتشاهدها ، واتسعت عيناها في دهشة ؛ فقد قامت كاميراتها بالتقاط لقطات للمعركة التي دارت بين طارق والضباع ، وبين الضباع وعائلة سيزر ، وكيف حمل سيزر طارق فوق ظهره وسار به في الغابة تحيطه عائلته في مشهد مهيب .

لقطات نادرة تساوي الملايين ، لكن على الرغم من سعادتها بتلك اللقطات النادرة فإن قلبها كاد يقف لما ظهر أمامها فجأة وجه ضخم لكائن مزيج ما بين الأسد والنمر وهو ينظر بشراسة للكاميرا وخلفه ثلاثة كائنات عجيبة الشكل يجمعهم جميعًا قاسم مشترك وهو تلك النظرة النارية المجنونة المتعطشة للدماء .

" لايجر؟ كيف؟ وما هذا؟ ليبون؟ وهل هذا تي لايجر؟ وتايجون؟ ما هذا العبث؟ ما هذا الجنون؟ من أطلق هذه الكائنات في الغابة؟ ومن صنعها؟ "

" يبدو أن أحدهم يريد أن يلعب دور الإله ! "

قالها رفيقها في المعمل فقامت غاضبة وهي تأخذ الصور معها :

" يبدو هذا؟ معتوه آخر من أولئك الذين يلهون بالمخلوقات وهم

يظنون أنهم يصنعون الأمجاد، لا يجب السكوت عن هذا العبث، يجب إبلاغ منظمة حماية الحياة البرية، فأنا أكاد أكون متأكدة أن هذه الوحوش الأربعة وراء الدمار الذي يحدث في الغابة منذ فترة، لا عجب أنها تهاجم كل الكائنات حتى أسراب الأفيال، أتدري كم فيلاً مات متأثراً بجراحه جراء مهاجمته؟ إنهم إن لم يقتلوا الحيوانات في لحظتها فهم يصيبونها بجراح تلتهب بعد ذلك وتقتل الحيوان ببطء وألم، لا أدري مَن وراء تلك الجريمة وما هدفه، لكن حمداً لله أنني وضعت تلك الكاميرات، فلولاها لكنا لا زلنا على جهل بهذه الكارثة" .

قالتها وهي تخرج من الحجرة وتركب سيارتها متوجهة إلى مركز حماية الحياة البرية، وفي داخلها شعرت بالخوف الشديد على سيزر وعائلته، ودعت الله أن تتمكن من إيقاف تلك الكائنات القاتلة قبل أن تصل إليهم.

☼☼☼

تشمم سيزر رائحة الشجرة، رائحة منطقة نفوذ والده سايري، لم يتعرف عليه والده، لكن والدته عرفته، شعرت به، وهو عرفها، كيف له أن ينسى وجهها الذي لم يفارق أحلامه قط، وتساءل: هل حقًّا يريد أن يعود إليهما؟ إنه يتذكر هجوم أبيه عليه والجرح لا يزال في رأسه، ويتذكر أيضًا زئير أمه من فوق التل وهي تبحث عنه، ويتذكر زونا وطارق الذي أنقذه.

طارق! كيف هو الآن يا ترى؟ ابتعد إلى داخل منطقة نفوذه في طريقه إلى حيث تجمعت أسرته حين سمع صوتًا غريبًا، من بعيد اقتربت سيارتان وتوقفتا على مسافة غير بعيدة ثم أخرج طارق رأسه من النافذة ولوح بيده إلى سيزر وهو ينادي باسمه، ثم ترجل طارق من السيارة بينما قلب والدته يخفق قلقًا عليه، لقد أنقذ سيزر طارق بالفعل، لكن رؤية ولدك يترجل في الغابة للقاء أسدا بري ليس بالمشهد المحبب الذي تطمئن له كل أم! وقف والد طارق يحمل سلاحًا وقد أخرج رأسه من فتحة السقف، لم يكن ليترك أي شيء للمصادفة فيما يخص حياة ولده.

مشي طارق ببطء إلى حيث سيزر الذي انتبهت زوجاته لوجوده، وسار سيزر ناحيته تزداد سرعة خطواته كلما اقترب منه، ولما بات قريبًا منه لا يفصلهما سوى بضع خطوات وقف سيزر على قدميه الخلفيتين ورفع يديه ليحتضن طارق في مشهد خفقت له قلوب من معه وانسابت معه دموع الفرح والدهشة من عيني طارق ومرافقيه.

لم يتحمل طارق ثقل سيزر فجلس أرضًا وأخذا يلعبان معًا، ثم انضمت زوجاته إلى اللعب:

"سيزر يا صديقي! أوحشتني".

قالها طارق وهو يحتضن سيزر في سعادة غامرة ثم تمدد أرضًا وسط الأسود على مرأى من والديه المشدوهين ومرافقيه، وبالطبع كان

جون يصور هذا اللقاء الفريد بأكثر من كاميرا وعيناه تلمعان من التأثر والسعادة والدهشة .

بقي طارق برفقة صديقه سيزر وعائلته عدة ساعات ، كان أجمل ما في الموضوع هو استطاعة طارق فهم سيزر والتحدث إليه وعائلته ، وحين هم بالانصراف وعدهم بالعودة ثانية لزيارتهم ، وفي طريق العودة مروا على أرض سايري ، كان سيزر قد أخبر طارق بالقصة كلها ، كيف ابتعد عن أهله ، وكيف قابلهم مرة أخرى ، غير أن سيزر كان في حيرة من أمره : هل يقترب من والديه ، أم يدع الأمر كله ولا يهتم؟ ففي النهاية لقد أراد والده قتله يومًا ما ؛ لذا قد يكون الاقتراب منه لا يزال فيه خطورة ، إنه لا يعلم إلى الآن ما الذي دفع والده لهذا الأمر ، ولا يعلم إذا اقترب منه هل سيرحب به أم سيريد أن يكمل ما فشل في تحقيقه من قبل؟

اقترح عليه طارق أن يترك الأمر يسير تلقائيًّا وينتظر ، وقد تكشف الأيام عن حقائق تساعده على اتخاذ القرار الصحيح .

☼☼☼

نزل جاكسون وفريد من السيارة الفارهة وأغلق جاكسون الباب بسرعة في وجه كوبر الذي تفادى إغلاق باب السيارة على أصابع يده بأعجوبة ، وأخذا يضحكان ويستهزئان بكوبر الذي نزل من السيارة

يلحق بهما إلى داخل المنزل، ولم ينس جاكسون أن يركل السائق في قدمه ويشده من قميصه وهو يجري ليدخل الفيللا.

انطلق هو وصديقاه يركضون في أنحاء الفيللا حتى وصلوا إلى حمام السباحة، فتوقف جاكسون وأمسك فريد وألقاه بكل قوة بملابسه في حمام السباحة وهو يضحك عليه، ثم التفت إلى زجاج مكتب والده المطل على الحديقة ولوح بيده لوالده الذي كان يتحدث في الهاتف ويراقب ما يحدث بلا اهتمام، ولما رفع جاكسون يده ليحيي والده كان والده قد أعطاه ظهره ولم يكترث بأن ينظر إليه ثانية.

داخل غرفة المكتب ارتفع صوت والده وهو يوبخ من يكلمه على الهاتف:

"اسمع أيها الأحمق! إن غلطتك بترك ذلك الأبله يفر بالحيوانات لن أغفرها، وستعاقب عليها عقابًا سيجعل كل من يسمع به يتمنى لك الموت شفقة بك، لكن لكي أُبقي على عائلتك قطعة واحدة فأمامك مهلة ثلاثة أيام لتلم الأمر وتحضر لي جثث تلك الحيوانات قبل أن تتسبب في مزيد من لفت الانتباه، تبًّا لك، تبًّا لكم جميعًا! ستندم على وضعي في هذا الموقف وجعلي أشعر بكل هذا الغضب!"

قالها وهو يضرب سماعة الهاتف على المكتب في غضب جنوني، ثم أمسك بجريدة يومية بها صور الأسود الأربعة التي التقطتها كاميرات كارلا وقد كتب عنها تحقيق صحفي في جريدة متخصصة في

حماية البيئة يتساءل: مَن وراء جرائم تدمير البيئة وإطلاق تلك الكائنات المهجنة في الطبيعة والتسبب في اختلال التوازن البيئي.

مزَّق الجريدة في عصبية وألقاها أرضًا ثم أمسك هاتفه المحمول واتصل برقم ما وانتظر حتى سمع المتحدث ثم قال:

"أريد ان أراك، الآن، في منزلي".

ثم أغلق الهاتف وجلس ينفث دخان سيجاره في عصبية وهو يرسم خططًا مختلفة للخروج من تلك الأزمة بأدنى خسائر ممكنة.

☼☼☼

تعارفت زونا وليبون، وشعر ليبون بالراحة لبقائه مع أسد لا يدعوه للقتل والقتال بدون سبب، وبعد يومين عاد إخوانه اللايجر والتي- لايجر والتايجون، فوجئوا بزونا، وبذل ليبون مجهودًا خرافيًّا لإقناع اللايجر بانضمام زونا لهم، غير أن زونا لم ترتح لنظراته، وكانت دائمًا تشعر بالخوف، وندمت على تفكيرها للانضمام لهم؛ لهذا كانت تلازم ليبون كظله مبتعدة قدر ما تستطيع عن الآخرين وخاصة اللايجر.

كان اللايجر هو زعيم المجموعة، فهو أضخمهم حجمًا وأقواهم، كان أضخم أسد رأته زونا في حياتها، وكان هذا هو

الطبيعي، فنتاج تزاوج أسد مع أنثى نمر يكـون كائنًـا يجمـع في صـفاته خواصَّ من كلا الوالدين غير أن حجمه يفوق كليهما[١٩].

كان قد مضى على وجودهم في الغابة فترة، وأكثر مـن مـرة كـان إخوانه يطلبون منه التوقف عمَّا يفعلونه من تدمير، خاصـة الليبـون، لكنه كان ينهرهم، كـان يريـد الانطـلاق في كـل مكـان، يحـب ذلـك الشعور بالقوة والسيطرة ومطاردة الحيوانات كلها، ولِمَ لا؟ لديه القوة والمقدرة على ذلك، فلماذا لا يستغلهما كما يريد؟ لـم يكـن يشـعر أن عليه أن يتوقف، على الرغم من أنه بدأ يشعر أنه أكثر سعادة وارتخـاءً عما كان من قبل. ذهب عنه الحنق والغضب الشديد الذي كان يشـعر به أول ما نزل بهذا المكان.

بعد فترة بدأ الليبون يتعافى ويخرج معهم في هجماتهم، حاولـت زونا أن تلفت انتباههم للاتجاه شرقًا حيث أرض سايري، لكـن نظـرة نارية من اللايجر أخرستها:

"سنتجه شمالاً".

وبالفعـل اتجهـوا شمـالاً ليجـدوا عائلـة مـن الأسـود أرعبوهـا

---

(١٩) قد يصـل وزن اللايجـر إلى ٤٠٠ كيلـو جـرام، أمـا متوسـط حجـم الأسـد الإفريقي الذكر فهو ٢٠٠ كيلو جرام.

وفرقوها، كانت صحبة غريبة، يتمتعون بالأذى، لا يصيدون بقدر ما يدمرون الغابة، وبالرغم من كونها شريرة فإنها لم تتخيل أبدًا أن ترى وحوشًا بهذا القدر من الشراسة والأذى بلا داع.

حاولت مرة أخرى الاقتراح بالذهاب شرقًا، هنا قام اللايجر كالإعصار ينقض عليها، تدخل ليبون ودار صراع أسلمت على أثره زونا أقدامها للريح، جرت بكل قوتها مبتعدة عن هذا الكابوس:

"كيف أدخلت نفسي في هذا الكابوس؟ لقد كدت أقتل نفسي في سبيل التخلص من سايري وتونجا، يا لي من حمقاء!"

أما اللايجر فقد تعارك مع ليبون، اتهمه الليبون بإفساد حياتهم وطرد رفيقته، فزاد غضب اللايجر أكثر ونظر إلى حيث اختفت زونا والشرر يتطاير من عينيه، لقد تسببتْ في إفساد علاقته بأخيه، ولن يشعر بالراحة إلا بأن ينتقم منها، فقد عكرت مزاجه. وبما أنه كان يعلم وجهتها فقد قرر قرارًا اتخذه مع نفسه دون أن يشرك إخوانه فيه:

"سنغير اتجاهنا، سنسير شرقًا!"

قالها وهو يقوم ليتقدم ثلاثتهم، نحو أرض سايري، وسيزر!

التاي ـ لايجر

مواجهة ومصير

تفحص طارق مع والده الصور التي أحضرتها كارلا إلى مركز حماية الحياة البرية في اهتمام، وأدرك على الفور خطورة الوضع في الغابة، على الأقل على سيزر وعائلته.

" لا بد من اصطياد تلك الكائنات الدخيلة على الغابة. . إن وجودها شديد الخطورة، إنها لا تفعل شيئًا سوى تدمير كل ما تقع عليه أيديها " .

قالت كارلا بتوتر.

" ينبغي الاتصال بالحراس وترتيب الوضع معهم " .

قالها والد طارق وهو يتصل بالهاتف، فاضطرب طارق وقال بصوت متوتر:

" حراس؟ "

" نعم " .

قال والد طارق . .

" حرس المحمية التابعين لمركز حماية الحياة البرية هم سكان القبائل المجاورة للمحمية ، وتم تعيينهم كمراقبين يجوبون الغابة ليلاً ونهاراً لتفقد أوضاع الحيوانات وحراستها من الصيادين غير الشرعيين والإبلاغ عن أي انتهاكات " .

زفر طارق بعدما فهم أن والده يقصد الحراس من البشر المعينين بواسطة الحكومة لرعاية الحياة البرية وحراستها ، وليس الحراس الآخرين الذين أهدوه القدرة على التخاطب مع الكائنات المختلفة .

حضر الحراس وتم عمل اجتماع حضره العديد من المهتمين بالحياة البرية والعاملين بالمركز ، واتفقوا على ضرورة نصب أكمنة للأسود المهجنة والإمساك بها قبل وقوع أي حوادث جديدة .

" وفقًا للخريطة فإن الأسود موجودة بهذا المكان " .

وأشار قائد المجموعة بيده على الخريطة المعروضة على الحائط :

" ما رصدناه هو أنها تتجه شمالاً ؛ لهذا أقترح أن نبدأ في صنع الأكمنة في هذا المكان " .

شعرت كارلا بالارتياح، فقد كان اتجاه الأسود المهجنة بعيدًا عن أرض سيزر (أو هكذا كانت تظن) سأله أحدهم:

"هل ستكفي الأكمنة؟"

رد القائد:

"بالطبع لا، سنكون جاهزين ببنادق مخدرة نطلقها على الأسود المهجنة إذا استطعنا ذلك، هل من أسئلة أخرى؟"

لم يرفع أحد يده فقال:

"حسنًا، سأبدأ بالتنسيق مع القبائل وحشد عدد من الرجال للمساعدة في نصب الأكمنة".

قام الجميع فهرع طارق إلى والده:

"هل يمكنني المجيء معكم؟"

"كنت أتمنى ذلك يا طارق، لكنك ترى أن العدد كبير والسيارات محدودة، هذا بجانب المعدات، أنا نفسي لن أذهب لأني لن أفيدهم في شيء، فهم بحاجة إلى صائدين متمرسين لا إلى علماء".

كان والده على حق فسكت طارق، فقال والده بابتسامة لطيفة:

"لكنك يمكنك زيارة سيزر اليوم، فأنا في طريقي مع جون والدكتور لحام إلى منطقته لتفقد بعض الأمور".

فرح طارق بشدة وركب مع والده ورامي والدكتور لحام وجون السيارة وانطلقوا جميعًا، بينما بقي بقية الرجال يعدُّون العُدَّة للذهاب لنصب الشراك للأسود التي غيرت طريقها شرقًا.

☼☼☼

كان سيزر نادراً ما يترك مكانه فوق التل حيث يراقب والديه، انضمت إلى عائلته مؤخراً أنثى جديدة صفراء اللون تُدعى غوالا، هربت من عراك وحشي بدأته أسود شرسة مع زوجها والعائلة كلها وانتهى العراك بتفرق وتدمير العائلة، بينما نجت هي بصعوبة. كان أمر الأسود هذا يثير أعصابه بجانب وجوده على مقربة من والديه وخوفه من الاقتراب منهما.

فجأة رآها وانتبه، إنها زونا، كيف ينساها؟ كانت متجهة نحو عائلة والده، ترى ماذا تريد؟ لكن ما جعله يشعر بالاستغراب كان رد فعل غوالا زوجته الجديدة التي انضمت إليهم بعدما هربت من هجوم اللايجر وإخوانه، قالت غوالا بقلق:

"هذه اللبؤة مقطوعة الأذن كانت مع الأسود التي هاجمت عائلتي".

بالأسفل كانت زونا قد اقتربت من سايري وعائلته، متصنعة الانكسار، ثم توقفت عن الاقتراب، كان سايري قد رآها وتحفز

لقدومها، انتظرت رد فعله وكان رد فعله عنيفًا، انطلق نحوها تتبعه تونجا، وبدا أنه ينوي شرًّا، فانطلقت تهرب من المكان مبتعدة بسرعة.

خطتها لاستدرار عطف سايري فشلت تمامًا.

أخذت زونا تركض مبتعدة يتبعها سايري ليتأكد من خروجها عن أرضه تمامًا، وسيزر يتابعهما من فوق التل، ثم توقف سايري عن الركض لما رآهم قادمين بسرعة، أربعة أسود غريبة الشكل، أحدهم شديد الضخامة انقضوا مجتمعين من خلف الأشجار على سايري بينما لاذت زونا بالفرار تاركة سايري يقاتلهم وحده.

وزأر سيزر، زأر بشدة وبغضب وشتت زئيره انتباه الأسود، مما سمح لسايري أن يحاول الفرار، لكنهم لحقوا به، لكن زئير سيزر أيضًا نبه والدته وعائلتها أن هجومًا ما يتم على سايري، في الوقت نفسه انطلقت غوالا تحذر عائلة سيزر لمقدم القاتلين الذين هاجموا عائلتها بالكامل من قبل.

أغضب زئير سيزر اللايجر، فقد أفقدهم عامل المفاجأة وأخبر الكل بهجومهم؛ ولهذا قرر أن عليه تلقين سيزر درسًا.

في الوقت ذاته أسرع سيزر ينزل من فوق التل لنجدة والده كما أسرعت إليه تونجا وريتا وجنجو تاركين نيللي لحراسة الأشبال.

وحين لامست أقدامه الأرض وانطلق يدور حول التل إلى الناحية الأخرى حيث المعركة توقف لما سمع صوتا بشريًّا يعرفه جيداً يناديه :

" سيزر ! "

إنه طارق ، ما الذي أتى بـه الآن؟ لم يكـن لديـه وقـت يضـيعه ، فوالده يهاجَم خلف التل ، فما كان منه إلا أن التفت إلى طـارق الـذي أشار إليه بيده ثم اعتدل وجرى إلى الناحية الأخرى لإنقاذ أبيه .

لكن مع تغير اتجاه الريح هبت رائحة غريبة قادمة من حيث يقـف طارق ، رائحة تحمل كل معاني الرعب ، وتوقف سـيزر وعـاد يلتفـت إلى طارق الذي كان يتجه صوبه مندهشاً أنه تركه ولم يأت إليه :

" سيزر؟ هل أنت بخير؟ أتهرب مني؟ ! "

هناك خلف طارق لمح ذيل اللايجـر بـين حشـائش السـافانا ، ثـم اعتدل صاحب الذيل بعدما أدرك أن سيزر قد اشتم رائحتـه ، ووقـف اللايجر ينظر في عيني سيزر ، في الوقت ذاته شعر طارق أن سيزر ينظـر إلى شيء ما خلفه ، فالتفت ببطء ثم تجمـدت الـدماء في عروقـه لمـرأى اللايجر .

لم يرَ طارق لايجر من قبل في حياته قَط ، لم يرَ في حياته قطًّا بهـذه الضخامة يتدفق الزبد من بين أسنانه ناصعة البياض ، ثـم في بـطء أدار اللايجر عينيه لينظر إلى طارق ، وعلم سيزر ما ينويه اللايجر ، ولم يكـن

هناك مجال للاختيار، بدا واضحًا أن اللايجر أقوى منه وأضخم، لكنه لم يكن ليتخلى عن صديقه، فانطلق سيزر يركض بكل قوة تجاه اللايجر الذي انطلق بسرعة في اتجاه طارق.

لم يقف طارق متفرجًا، بل انطلق يركض هو الآخر نحو سيزر يتبعه اللايجر في إصرار.

كان الأمر أشبه بالسباق غير أن الخاسر الأكبر فيه قد يكون طارق، اللايجر يسابق سيزر للفتك بطارق، وسيزر يسابق اللايجر لإنقاذه، وطارق يسابق اللايجر للاحتماء بسيزر.

ولأن اللايجر كان الأقرب لطارق فقد أدركه ومد إحدى يديه وأوقع بها طارق أرضًا، لكن سيزر كان قد أدركه، فما كان منه إلا أن قفز عليه قبل أن يلمس صديقه واشتبكا في قتال عنيف.

اللايجر وحش بكل المقاييس، وفي عراك بينه وبين أسد بالتأكيد ستكون كفة الأسد هي الخاسرة، إلا إذا لم يكن الأسد وحيدًا!

قام طارق من مكانه وهو لا يصدق أنه قد نجا، في الوقت الذي وصلت فيه زوجات سيزر ليشتركن معه في الدفاع عن العائلة، وانطلق طارق يركض إلى سيارة والده الذي كان واقفًا حاملاً بندقيته مخرجًا رأسه من فتحة السقف، بينما كان الدكتور لحام يتصل بالحراس لإخبارهم بوجود الأسود في المنطقة، وعلم منهم أنه قد تم إخبارهم

بهذه المعلومة سابقًا وأنهم في طريقهم إليهم وقد أوشكوا على الوصول.

"سيقتل سيزر".

صرخ طارق في ذعر بينما كان والده يحاول أن يصوب البندقية على اللايجر في محاولة يائسة منه لإنقاذ سيزر، لكن كان من الصعب ضمان أن تصيب طلقته اللايجر وسط هذا الاشتباك العنيف.

أما خلف الجبل فكانت المعركة أقوى وأكثر وحشية، فقد أُصيب سايري إصابات بالغة، بينما كانت تونجا وريتا وجنجو يحاولون بأي شكل الدفاع عن أنفسهم ضد الوحوش الثلاثة: التي-لايجر والتايجون والليبون، وكان من حسن حظهم أن الليبون مصاب.

وبعد فترة بدأت ريتا تنسحب وكذلك جنجو، شعرا أنه لا فائدة، وأنهما إن استمرا في القتال فسيكون مصيرهما كمصير سايري، كانوا مقتنعين أنهما لن يتمكنا من هزيمة هذه المخلوقات الغريبة شديدة القوة، لكن وقفت تونجا تدافع عن زوجها بالرغم من إصاباتها الخطيرة وتنادي ريتا وجنجو أن يعودا، لكنهما ابتعدا تاركين تونجا وحدها وسايري جريح وقد وقع أرضا في ضعف ينزف جسده في أماكن كثيرة.

فجأة دوى صوت بندقية في المكان ووقع التي ـ لايجر أرضًا بعـدما أصابته رصاصة في قدمه :

" ما هذا؟ "

صاح والد طارق . . سأله طارق :

" أهؤلاء الحراس؟ "

" لا، هذا صوت بندقية، الحـرس لا يقتلـون الحيوانـات، إنهـم أناس آخرون، هناك! "

نظر إلى حيث أشار والده فوجد سيارة ذات دفع رباعي وقـد بـرز من سقفها رجل ببندقية قناصة يصـوبها في اتجـاه المعركـة الـدائرة بـين سايري والأسود .

" يا إلهي! سيقتلونهم! "

صرخ طارق .

لكن في تلك اللحظة برزت الهليكـوبتر التابعـة لحـراس الغابـة، أشار إليها والد طارق وهو يصيح :

" اقبضوا عليهم! إنهم لصوص! "

أما اللصـوص فمـا إن رأوا الطـائرة حتـى تركـوا مـا في أيـديهم وأسرعوا يحاولون الفرار .

أبلغت الهليكوبتر سيارات الحراس باتجاه اللصوص ليلاقوهم قبل فرارهم، ثم بدأت تحوم حول منطقة العراك الدائر بين الأسود، وفي خلال عدة دقائق كان الحراس قد نجحوا في إصابة الليبون والتي- لايجر والتايجون بأعيرة مخدرة، ثم انطلقوا إلى حيث تدور المعركة بين سيزر واللايجر.

بدا واضحًا أن سيزر وعائلته قد كسبا المعركة، فاللايجر ضخم الجثة لكن قوته كانت قد أنهكت بعد أيام من العراك مع حيوانات الغابة، وبعد صراعه مع سيزر وعائلته، فمهما كانت قوته فلا يمكنه أن يهزم ستة أسود وحده. وأثناء ما كان يلوذ بالفرار أصابه الحراس بأعيرة مخدرة فقد بعدها بدقائق الوعي.

ووصلت سيارات الحراس وقاموا بحمل اللايجر وإخوانه ووضعوهم في قفص بالسيارة قبل أن يفيقوا.

أما طارق فقد نزل مسرعًا للاطمئنان على سيزر وأسرته، كان سيزر بخير هو وعائلته إلا من بعض الجروح والكدمات، وأسرع سيزر إلى خلف الجبل للاطمئنان على والديه، كان سايري في حالة سيئة وقد نام أرضًا يعلو صدره ويهبط ببطء، يتنفس بصعوبة والجراح تملأ جسده، ووقفت تونجا بجانبه لا تفارقه، لم تمنعها جراحها من المكوث بجانبه.

اقترب سيزر منهما تتبعه عائلته وطارق، نظرت إليه أمه في حزن، وفتح والده عينه ببطء لما اقترب منه سيزر:

"سيزر.. ولدي!"

قالها سايري في ضعف.

"أنا هنا يا أبي، ولن أتركك".

فتح سايري عينيه ونظر إليه في فخر:

"سامحني يا سيزر".

وانسابت الدموع من عيني طارق، بينما نزل سيزر على ركبتيه يحتضن والده:

"لا تقل هذا يا أبي".

ألقى سايري نظرة أخيرة على زوجته وسيزر ثم قال:

"تونجا، سيزر، سامحاني" ثم هدأ جسده إلى الأبد.

بكي طارق متأثراً بينما وقف الحراس ووالده والدكتور لحام وجون ـ الذي لم يترك لحظة لم يصورها ـ يتابعون الموقف في دهشة واستغراب من وجود فتى شاب جنبًا إلى جنب مع هذا العدد من الأسود البرية يبكي لحزنهم ويشاركهم آلامهم.

ربض سيزر وتونجا بجانب سايري لم يفارقاه لساعات حتى إن سيزر رفض أن يضمد له طارق جراحه، ولما فرغ طارق من مساعدة الطبيب في تضميد جراح عائلة سيزر كان لا بد له أن يرحل مع اقتراب وقت الغروب. وفي اليوم التالي حضر مع والده وجون وقام بتضميد جراح سيزر وتونجا وساعده والده على دفن سايري.

☼☼☼

في مركز حماية الحياة البرية دخل طارق ورامي والدكتور لحام إلى حجرة واسعة بها أربعة أقفاص بداخلها الأسود الأربعة المهجنة، والتي كانت في حالة هياج شديدة تضرب القضبان بأياديها في غضب شديد.

" إنها بهذا الحال من الجنون منذ أن استيقظت منذ عدة أيام، لم أرَ من قبل أسوداً بهذه العصبية والتوتر " .

قال دكتور لحام. . لكن طارق لم يسمعه، فقد كان كل اهتمامه منصبًّا على ما كان يزأر به الأسود الأربعة من كلام:

" أخرجونا من هنا، لا نريد العيش في أقفاص ثانية، أخرجونا " .

التفت طارق إلى الدكتور لحام وسأله:

" ما مصير تلك الأسود؟ "

" سيتم نقلها إلى حديقة الحيوان " .

" هل ستعيش في أقفاص؟ "

" أعتقد هذا، فلا يمكن إطلاقها في البرية، إنها متوحشة، ثم إنها دخيلة على النظم البيئية هنا " .

" أعتقد أن سبب توحشها وغضبها هو وجودها خلف القضبان، هل تذكر الصور التي أرتنا إياها كارلا؟ ظهرت هذه الأسود في تلك الصور وقد تمددت أسفل الأشجار ونامت بالساعات كما تنام الأسود العادية، لكن كما تقول منذ أن استيقظت هنا منذ عدة أيام وهي تضرب الأقفاص وتزأر، إنها تملك طاقات هائلة، وتحجيمها داخل الأقفاص يزيدها جنونًا فقد سئمت الأقفاص ولا تريد العودة إليها مجددًا " .

" تحليل رائع ! "

التفتوا جميعًا إلى قائل العبارة، كان دكتور مارك العالم المتخصص في دراسة الأسود منذ عقود :

" تحليل رائع يا فتى، أنا دكتور مارك سميث، تخصصت في دراسة حياة الأسود البرية منذ عقود، وما تقول صحيح تمامًا " .

" لكن كلنا رأينا ما صنعت تلك الأسود في الغابة، كانت تدمر كل ما تقع عليه أيديها " .

قال الدكتور لحام .

رد الدكتور مارك :

" ذلك لأنها لم تحيَ من قبل حياة طبيعية ؛ فلم تفهم ما عليها فعله في الغابة ، وهي صائدة بطبيعتها فقامت بمطاردة وصيد كل ما وقعت عليه أعينها دون تفرقة ، كل ما تحتاجه تلك الكائنات هو العيش في بيئة طبيعية وفهم ما ينبغي عليها فعله " .

" إذن ما الحل ؟ "

" الحل هو أن توضع هذه الكائنات في بيئة طبيعية وتنضم إلى عائلة كبيرة وتحيا مثل الأسود العادية " .

رد طارق .

" أحسنت " .

رد دكتور مارك

" لكنها ليست أسودًا طبيعية ، ألا يعد ذلك تدميرًا للنظام البيئي بإدخال أنواع جديدة في نظام بيئي متوازن؟ "

تساءل رامي .

رد الدكتور مارك :

" منذ مئات السنين حين كانت الأسود والفهود والنمور أعـدادها كبيرة، كانت منـاطق تواجـدها تخـتلط فيحـدث تـزاوج طبيعـي بـين الأنواع المختلفة، وكان تواجد اللايجر والتاي-لايجر والتايجون والليبون يعد شيئًا طبيعيًّا في البيئة، بل إن تدخل الإنسان بقتل أعداد كـبيرة مـن تلك القطط جعل أعدادها محدودة فلم تعد تختلط أماكن تواجدها كما سبق، ولم يعد يحدث تزاوج طبيعي بينها كالسابق[٢٠] " .

ثم أضاف :

" ولهذا أتيت، سآخذ تلك الأسود معي وأضعها في محمية طبيعية وأساعدها على العيش ضمن أسرة من الأسود، ستكون هذه التجربـة هي الأولى من نوعها في العـالم، وسـأحظى بشـرف الإشـراف عليهـا بنفسي .

" أعتقد أن مجرد ذكر هذا الخبر ومعرفة العالم بوجود تلك الأسود المهجنة تحيا في بيئة طبيعية سيجلب لك الكثير من السائحين ويساعدك في مصاريف تلك التجربة الفريدة " .

" أتمنى هذا، وأتمنى أن يكون توقعي صحيحًا وتبدأ تلك الأسـود في التخلي عن شراستها الزائدة والعيش بشكل طبيعي " .

---

(٢٠) حقيقة علمية .

" أتمنى لك كل التوفيق يا دكتور مارك " .

قالها دكتور لحام .

" من فضلك دعني آخذك للتعرف على والد طارق دكتور نادر " .

" بالطبع ، هذا شرف لي " .

قالها وهو يخرج من الحجرة مرافقًا دكتور لحام .

" سأذهب لأشرب بعض الماء ، أتريدني أن أحضر لك كوبًا؟ "

قال رامي لطارق .

شكره طارق ، وبمجرد أن انصرف رامي التفت طارق إلى اللايجر وقال : " أتمنى أن تهدأ قليلاً وتسمعني " .

توقف اللايجر والأسودُ الثلاثة الأخرى عن التحرك من الدهشة :

" هل تتحدث معي؟ هل تفهم حديثي؟ "

" نعم ، وأتمنى أن تعي ما سأقوله : سيتم نقلكم خارج تلك الأقفاص إلى مكان مفتوح ، وستحيون في بيئة طبيعية ، كل ما هو مطلوب منكم أن تتوقفوا عن قتل كل ما تقع عليه أيديكم ، وإلا فستعودون إلى الأقفاص ثانية " .

لم يرد أحد منهم ، فأضاف طارق :

" أعلم أنكم مررتم بظروف صعبة؛ ولهذا سيتم إعطاؤكم فرصة أخيرة فانتهزوها، كل ما أطلبه هو ألا تقتلوا إلا من أجل الغذاء أو الدفاع عن النفس، أنا أحاول مساعدتكم والأمر الآن في أيديكم: إما أن تهدئوا وتنفذوا ما أنصح به، وإما أعادكم البشر إلى الأقفاص، وهذه المرة لن تخرجوا منها أبدًا! "

لاحظ طارق أن اللايجر ينظر إلى شخص ما خلفه فالتفت بسرعة، كان رامي عاقدًا حاجبيه وينظر إليه نظرة استغراب. . طالت لحظة الصمت فقطعها طارق بتوتر:

" رامي، لقد جئت؟ "

ومد يده يأخذ منه كوب الماء ويشربه بعصبية.

" هل تتحدث مع الأسود؟ "

" لا، أنا فقط أتكلم، لكنها بالتأكيد لا تفهمني " .

وضحك بعصبية.

" إذن لماذا صمتت؟ "

تجمد طارق في مكانه من بغتة السؤال، ثم تدارك الأمر وتصنع الدهشة وسأله:

"هل هدأت حقًّا؟ يا لها من مصادفة، أعتقد أنها بعد كل تلك الأيام قد تعبت من ضرب الأقفاص، لقد تذكرت شيئًا هامًّا، هل رأيت أبي؟ يجب عليَّ إخباره بشيء هام، عن إذنك يا رامي، سأذهب للبحث عنه" .

وأسرع يغادر الحجرة دون أن يعطي رامي الفرصة ليسأل سؤالاً آخر .

"لقد أوشك رامي على اكتشاف أمري، فلأكن حذرًا المرة القادمة" .

حدث نفسه ورأى والده أمامه فناداه وذهب إليه :

"أبي" .

"طارق، هل تريد شيئًا؟"

"نعم، كنت أريد أن أسألك هل اعترف الصيادون الذين أمسكهم الحراس؟"

"نعم، لقد أرسلهم أحد الأثرياء الذي هو السبب وراء وجود تلك الأسود، وأراد أن يقتلها قبل أن يفتضح أمر تجارته غير الشرعية في الحيوانات وتجاربه عليها" .

"هل معنى ذلك أن الرجل سيعاقب على فعلته تلك؟"

"بالتأكيد، لن يترك المركز ذلك الرجل وأشباهه يعبثون في الطبيعة والكائنات دون عقوبة" .

"أتمنى ذلك" .

قالها طارق في سره، يا لها من قسوة! بكل هذه السهولة يعبث الإنسان في مخلوقات الله ويحاول التخلص منها وقتما يمل منها؟! كل هذا العبث من أجل ماذا؟ وماذا جنت تلك الكائنات ليتحكم فيها الإنسان بتلك الطريقة؟ كل هذا لأن أحدهم يريد أن يلعب دور الخالق؟ يصنع ما يشاء من مخلوقات ثم ينهي حياتها متى شاء؟!

في عقل طارق بدا اللايجر والتي- لايجر والتايجون والليبون كضحايا لا معتدين، كائنات وضعت في ظروف قاسية لم يكن لها أن تختار حياة أفضل، شعر بالأسى لإفساد البشر حياتها ثم محاولة قتلها بكل برود.

أحس الدكتور نادر بضيق طارق فقال مواسيًا:

"إن هذا يحدث من قبل أن تولد يا ولدي، لكن لا تيأس؛ فمحبو الطبيعة كثيرون ولن يتركوا مدمريها في سلام، كما ترى سنفعل كل ما بوسعنا للإيقاع بالمتسبب الحقيقي، وحتى يحدث ذلك سنحمي الطبيعة بكل قوتنا من ذلك المخرب وغيره، إنه صراع ممتد منذ مئات السنين بين من يظنون أن الطبيعة خُلقت ليستغلوها أسوأ استغلال، ومن

يدركون أن الله سخرها للبشر جميعًا بالتساوي لأنهم يحتاجونها، وأن أي دمار يصيبها فسيرتد علينا جميعًا، هذا هو الفارق بيننا: شخص يستغل نعمة الله كما أراد الله، وآخر يستنزفها ويفتري عليها".

لم يرد طارق، أخذ نفسًا عميقًا وزفر بقوة، كان غاضبًا، هؤلاء الفاسدون من البشر، كيف أصبحت قلوبهم بتلك القسوة التي تجعلهم يتسببون بكل تلك الآلام لكائنات لا حول لها ولا قوة؟

"لا تظن أن هؤلاء المخربون أقوياء أو كثر، بل هم قلة، المشكلة في عدم انتباه الناس لما يفعلون، وعدم اهتمامهم لما سخر الله لهم من جمال هو حقهم، ووظيفتك ووظيفتنا هي لفت انتباه الناس إلى أن هناك من يستنزف حقهم وما خلق الله لهم من جمال ليتمتعوا به، وأن هناك قلة أنانية قد قررت حصد كل النعم لصالحها وترك الأرض بلا جمال".

ثم أضاف والده:

"هذا هو الحل الوحيد يا طارق، أن يعي كل إنسان أن الطبيعة جزء من ممتلكاته، ويجب عليه المحافظة عليها ومنع أصحاب الأطماع من استنزافها، والمساهمة ماديًّا ولو باليسير لتقوية المنظمات القائمة على حماية الكائنات والبيئة والدفاع عنها ضد المعتدين".

كان طارق يستمع إلى كلمات والده وهو يشعر بالدهشة، هذا

الكلام تقريبًا مشابه لما قاله له سيزر في حلمه : " أحبنا وعلم النـاس أن تحبنا " .

هذه إذن وظيفته الجديدة وتكليفه ، وسيقوم هو بكل مـا يسـتطيع لجعل الناس ينتبهون إلى تلك القضية والاهتمام بها ، سـيفعل كـل مـا يستطيع لجعل الناس تحب بلاد سيزر .

اقترب منه جون وهو يبتسم ويقول :

" هل تنوي زيارة سيزر قريبًا؟ "

" أتمنى ذلك ، لكن لن أتمكن من الذهاب إلا حين يفرغ أبـي مـن عمله " .

" ما رأيك في أن أوصلك أنا؟ "

ابتسم طارق وقال :

" فكرة رائعة ، سأذهب لاستئذن أبي " .

ولما وافق والده ذهب طارق يبحث عن رامي حتـى وجـده ، كـان يبدو متضايقًا . اقترب منه وهو يبتسم وقال :

" رامي ، أنا ذاهب للقاء سيزر ، هل يمكنك المجيء معي؟ "

ظل صامتًا ثم قال :

" لا، اذهب أنت " .

شعر طارق أنه قد أخطأ بالهروب من رامي وجرح مشاعره، فاقترب وهو يقول بصدق :

" لا أريد الذهاب وحدي، من فضلك أريدك أن تصحبني في هذه الرحلة " .

لم يرد رامي على الفور بل ظل صامتًا فترة ثم قال في ضيق :

" حسنًا " .

قالها وقام من مكانه، لكن لم يبتسم لطارق، واحترم طارق مشاعره، تمنى طارق لو يستطيع مشاركة سره مع صديقه، لكنه يعلم أنه لن يصدقه بل قد يبتعد عنه ويخشاه .

ذهبا معًا يستقلان السيارة مع جون، ولما وصلوا ترجَّل طارق من السيارة وبقي جون ورامي بها .

ولما رآه سيزر قام من مكانه وانطلق يجري نحوه ويقفز ويحتضنه ويوقعه أرضًا ويلهو معه وانضمت عائلته بعد ذلك إليه، اطمأن طارق على جراحه وجراح زوجاته وأنها تلتئم بشكل طبيعي . ثم جلس بجواره واضعًا يده على ظهره يتابعان معًا غروب الشمس على سهول جنوب إفريقيا، وداعبت النسائم شعر طارق وسيزر وأضفت عليه هيبة وجمالاً، وربضت عائلته حولهما تتابع معهما سحر الغروب في

سكينة وهدوء.

في السيارة جلس رامي يتأمل ذلك المشهد، هذا صديق مختلف ذو قلب يسع العالم والكائنات جميعًا، وفجأة شعر أن كل ضيقه قد اختفى، وأدرك في داخله أنه يحب طارق ولا يمكنه أن يشعر منه بأي إساءة.

أما جون فقد كان بالطبع يصورهم دون أن ينتبهوا إليه، ثم توقف عن التصوير وأبعد الكاميرا ووقف يتأملهم في إعجاب، يتأمل تلك الصداقة النادرة التي نشأت بين فتى وأسد أبيض، صداقة نادرة تمنى أن تدوم إلى الأبد ولا يعكر صفوها أي أحد.. أو أي شيء.

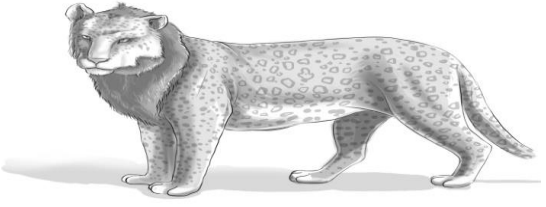

الليبون